مجلس القمرى

رواية

محمد عبدالحكم حسن

لوجو
الهيئة المربع

سلسلة
إبداعات

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• مجلس القمرى
• محمد عبد الحكم حسن
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
208ص. ٥ر١٣ × ٥ر١٩سم
• تصميم الغلاف: فكرى يونس
• المراجعة اللغوية: أشرف عبد الفتاح
نهلة فيصل
• رقم الإيداع: ٣٤٥١/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-479-862-3
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦ أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت: ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى: ١٨٠)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

278

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداعات الشباب

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
فؤاد قنديل
مدير التحرير
محمود الحلوانى
سكرتير التحرير
مدحت العيسوى

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة أو بالإشارة إلى المصدر.

مجلس القمرى

– أليس هذا هو القمرى؟

– نعم.. ولكنه منذ أن عاد وهو هكذا.

كان يمر من أمامنا بسنارته شارخًا زجاج الفضاء، يستند على حواف الضوء والظلال ومصمصات الشفاه وتحسرات العابرين، يدارى إصبعه الرخو فى فتحة جلبابه.

ويمضى صوب النهر بطيئًا وصامتً وحزينًا.

فسحبت يدى من كف صديقى ومشيت بجواره حتى شاطئ النهر، هناك دلى سنارته وراح فى صمت عميق.

– سلامتك يا قمرى، مالك لا تنظر إلى، ألا تتذكر ملامحى القديمة وأيام الصبا، قالوا إنك هكذا لم تحدث أحداً منذ عدت من هناك، قالوا صامت هو إلا عن آيات يتلوها وورد يردده، ومسجد يتردد عليه كل صلاة، وبحر يأتيه ساعة العصر، يدلى سنارته ويظل شارداً.. ليتك تحدثه، تحاول إخراجه من هذا الصمت العميق...

-١-

طرح النهر

« قنابل البرتقال »

كيف أبدأ بالكلام معك ، أيها اللائذ بصمتك الأبدى منذ آلاف السنين ، تفض بكارة الذكريات ، ووهج الحكايا ، وطمى الشواطئ ، وأحواض الورد فى حديقتكم القديمة التى كانت ها هنا ، ترمى على العابرين الظلال وعناقيد العنب وسباط البلح ، وألم فى الظهور محبب لنا ، حين كنا نعطى ظهورنا لسور حديقتكم وكأننا لم نرك وأنت تعلو السور كقط تعدنا واحداً واحداً بإصبعك المنتصب ، نحن العيال الواقفين هنا من الفجرية ، قبل شروق الشمس وصحو العصافير واستيقاظ أبيك .

وكان التفافنا المتهامس واتفاقنا ليلاً تحت عباءة الظلام أن نتجمع هنا ، قبل أن يستيقظ آباؤنا ، ويغزُّون أصابعهم فى جنوبنا ويتحسسون جلابيبنا خشية التبول الليلى .

وأنت تلملم ما تساقط من شجراتكم على الأرض، وتتسمع صوتنا الآتى من تلافيف الزروع والبيوت، حيث ننبت فجأة، تقذفنا الدروب إليك، أجساداً مرصوصة، وحروفًا تتكون كلمات تتطاير فوق الأشجار.

ونحن نهتف:

«قمرى يا قمرى.. أملا حجرك تين وادينا يا قمرى»

مرات ومرات نعرف أنك تسمع فى فرح، ونسمع فحيح أنفاسك، ولهاث كلبك الصغير وهو يحك رأسك فى مؤخرتك، همسنا يستحيل صياحًا وفرحًا، وثمار التين فى حجرك بعددنا،

ها هى ظهورنا تستعد لاستقبال قنابل التين والجوافة والبرتقال، تطوح يدك آلاف الأذرع وتقطف من غصون الأشجار وتقذف فى ظهورنا، واحداً بعد الآخر:

- ظهرك..
- أهه..
- خذ دى..
- آه يا ظهرى.

ونضحك ملء الكون، الظهور تتلقى، والأجساد تنحنى، والأيدى تخطف والأفواه تلوك، وشمس تتلصص بعيون ناعسة من وراء الجبل الشرقى.

وبين ضحكات ونهم وغز جوع وحلاوة ثمار ناضجة وخلاء لازال لنا وحدنا وثمار غابت فى عتمة البطون، نعود نعطيك رحابة الظهر وسعة البسمة والألم اللذيذ.

«حارس الملك»

قلت لى إن جدك كان دائم الرفض، حين طوح عصاه فوق الرؤوس المحيطة، وأقسم ألايخرج شىء من هذه المقابر، ولا تدخل أية قدم، حتى لا نعكر صفو الموت الهادئ، وتمزق نسيج الضوء الشفيف، وتقلق راحة الملك، كم مرة هدد بالتبليغ عند بلاط الملك هناك فى العاصمة، أليس هذا ملك وهذا ملك؟! والملوك ترعى خواطر الملوك وتحميها.

فضحك أهل المكان، وانحنت رؤوس التماثيل شاكرة، وانطلقت الترانيم والمراكب المقدسة والطقوس الملكية، وتململ الملك فى تابوته، فهامت الطيور على وجوهها فى البر، من تونة الجبل مروراً بطهنا حتى جبل الطير، رائحة وغادية تندفع من ظلمة المقابر، وترفرف حول كتفى جدك العريضتين، تداعب العمامة المتهدلة

والأذنين العريضتين والصدر الوسيع، تغز مناقيرها الناعمة فى مواضع تفجر فيه الضحك المتواصل، فيتنطط جدك مغمض العينين، هائمًا فوق بسط الأمنيات والذكريات والأحجيات القديمة، وعبق المكان، ورهبة الظلام بالداخل الذى تنبعث منه آلاف الأصوات الشاكرة، والتصفيق الحاد الآتى من عمق الهسيس. والذى لا يسمعه أحد سوى جدك الواقف الآن يدور بجسده باسطًا ذراعيه فى محيط الفراغ، ينحنى ويعتدل ويقبّل أياد وهمية، ويهز رأسه كالمستمع للنصائح والحكم، يتدفق العرق ساخنًا على جبهته وهو يصافح ويحتضن ويقبل ويسمع ويهش طيوراً مهنئة، ويتسقبل وفوداً قادمة، ويعدل من تاج مرصع بالأفاعى الذهبية.. وضعه إخناتون على رأس جدك الآن فى تجمع من المجمع المقدس والتفاف الكهنة والحنوط المبارك، والعربة الحربية، وكرسى بجوار الملك يقعد عليه متابعًا آخر أوامر الملك بتنصيبه حارسًا على المقابر الملكية، وجدك الذى يدور الآن فى الفراغ الذى امتلأ بالأجساد والأطفال والمتفرجين، لا يستمع للنداءات، ولا استغاثات الأبناء والبكاء المنهمر من عيون بناته.

إن رقصته العجيبة حين كان يقفز هكذا عاليًا فوق الصخور والحوائط الطينية وظهور التماثيل، لم تبعث فى الملتفين حوله سوى الضحك المتواصل، والتشفى فى هذا الرجل الذى ضاع عقله وأصبح يطلق كلمات وصيحات لا يعرفون معناها.

وحين يفيق بين كمادات باردة، ونعناع دافئ يصب فى الفم،

وشربة زيت وضمة حضن، يستعيد وعيه وينط واقفًا، ويقسم ليبلغن رجال الشرطة عن هؤلاء الذين يسرقون المقابر، ويفضون بكارة الرهبة والهسيس والصمت المطلق فى حضرة الملك، وجرى هناك إلى «منية بن خصيب»، كانت قدماه تخوناه أحيانًا فيسقط ويقاوم ويجرى ويستريح، ويقرش لقيمات يابسات فى جيبه، ويقبض بألف يد على ذاكرة وكلمات سيقولها هناك، كان الطريق طويلاً، والنخيل المتفرق لا يمحو قسوة الشمس، يمر على بيوت متناثرة، وعند زاوية سلطان تتبدى له «منية ابن خصيب» هناك على الشاطئ الغربى بمأذنها وبيوتها المتلاصقة، وفى المركب الشراعى يلتقط أنفاسه ويفرك كفيه فى حجره، ويدارى إصبعه ولهاثه ولوعته عن أعين المراكبى والعابرين، وعند موردة الحنش ينط مسرعًا يتخطى جامع الشيخ سعد والفولى، ويتجه حيث مبنى مديرية المنيا تحيطه الخيول الزروع وأحجار الشواطئ، ارتمى هناك بين النياشين والأحصنة المسرجة، والطرابيش المائلة على الجباه، والخوذات والحراب المشرعة والشوارب المفتولة والوجوه الحمراء، قال ادركونى، عظام الأجداد تتفسخ، وعيونهم المطفأة تستجير بى، بعينى هاتين رأيتهم يسحبونهم والتوابيت ،والجرار المغلقة بنتف الصوف، وأوانى الفخار والذهب وقوارير التحنيط والسرة والمرايا، كان الظلام عنيداً، حال بينى وبين أن أمسك بهم، كانوا كثيرين، همهماتهم متفرقة فى لجج الظلام، كانوا يعبرون النهر بسرعة مدهشة، أشرعة المراكب تشق الفضاء الصامت، وأصابعهم الوسطى

تخترق الظلام معاندة وقبيحة، لا زالت عالقة فى ذاكرتى أينما توجهت وجدت هذه الأصابع حرابًا منتصبة وسيوفا وفوهات مدافع وعيونًا وبنادق، كان يريد أن يقول لهم (هكذا) ويريهم إصبعه الغليظ المنتصب الذى كان يداريه خشية أن يظهر أمامهم. نظروا إليه هم الجالسون خلف مكاتبهم الأرابيسك، ودارت الأحصنة بمؤخراتها وأطلقت فساءها فى وجهه المضطرب، قالوا سنقبض عليهم واحداً واحداً.

وعاد.. يزيح جسده بصعوبة فى الفضاء الملبّد، ورأى النخيل ينتصب أمام عينيه أصابع وسطى تخترق فضاء الكون، والبيوت على حالهما كجمال باركة، والنهر يضرب ماءه فى واجهة الجبل، كان يعلو ويهبط فوق التلال، ويرى النيل يفرش حصير مائه حد الشوف، والشمس تسقط هناك فى بحر الشفق، ومن يتندرون عليه أحاطوه بالتصفيق والضحك، فلملم عصاه وإصبعه ولسانه وآثر أن يحتفظ بآخر مسمار فى عقله، ويجلس فى انتظار القادمين.

فى الليل جاءوا فرادى وجماعات، رآهم يجلسون ملتفين حول وهج الضوء وراكية النار، نفس الوجوه التى رآها اليوم، الشوارب على حالها والنياشين كما هى، حتى الأحصنة والخوذات والسرج، كانوا يجالسون أهل المكان والقمر النابت خلف الجبل، يقزقزون أجنحة الخفافيش، ويفتحون الجرار المغلقة، يعبثون فى جيوبهم والصدور، يدخلون ويخرجون من المقابر بخفة العفاريت وابن المكان، ويتركون أحصنتهم تتزاوج فى وسع الخلاء ورطوبة الرمل.

كان واقفًا فوق رؤوسهم، وقد كشف القمر الذى اكتمل الآن ملامح وجوههم والنياشين، رآهم يدخنون الحشيش ويحتضنون خبايا الأجداد، ويبعثرون النقود على صدور النسوة ورجالات المكان، ففك الحصار عن إصبعه السبابة الذى كان يداريه عن هذه الوجوه، وخرق به شفيف الخلاء، وراح يدور بجسده العريض وجلبابه المائل على صدره وعمامته التى تهدلت على وقع دفوف وأياد وصيحات آتية من عمق المقابر والمجهول سعف النخيل والنهر العابر بمخلفات البلاد وأسرارها.

أكان راقصًا؟ أم هائمًا؟ أم غائبًا عن الوعى؟.. حين تنطط بأقدام مفلطحة على الرمال، وردد وصايا إخناتون، ونادى أسماء لا وجود لها، وأشار بيده كأنما يستعجل جيوشًا ومددًا قادمًا من مكان خفى، كان يخلع قدميه من الرمال بصعوبة، ويتنطط بروح منهكة وصدر متحشرج، وجدران فضاء تطبق عليه، فتخونه القدمان اللتان ما كلتا أبدا، والجسد يترنح ساقطاً أماما الأعين، لقد بكى وهو الذى ما أبكاه الألم ولا غز الجوع فى عمق البطن، ولا برد طوبة وقلة الغطاء ووحْوَحة الجسم تحت سياط الصقيع، والليل القادم ببرده وسيوله وذئابه، وصرير رياح تتكسر على صلب الصخور، وتمخر فى عتمة المقابر وخشخشة التوابيت.

كان هو الحارس الذى نصب نفسه بتلك العصا حاميًا لحرمة القدمين، مانعا اللعنة من أن تصب على أمم الرؤوس، وتصبح القرى ماؤها غوراً، وتستحيل الأجسام على هيئتها حجارة وتماثيل.

كم من مرة بكى ودعا وابتهل وكتب شكواه على ورق البردى، وانتظر حتى أرسلت الشمس أشعتها، كاشفة رسومات الجدران، والطريق الحقيقى المؤدى إلى مقبرة الملك، وبين خوف ورهبة وتردد ورعشة وطيور تمرق، وفحيح أفاع، وطقوس جنائزية، وكائنات تتصارع على الجدران، وقرابين تقدم، وأياد خفية تمنع وتجذب وتسأل وتنحنى، وأبواب فى عمق الظلام تفتح، ودرج يعلو ويهبط ويتلوى، وخدر يجتاح الجسد، وعيون كهنة يبصون فجأة ويستحيلون طيوراً خرافية، تنطلق فى هسيس المقابر ودهشة الأشياء، والأجساد النائمة على حالها، وحبال الضفائر وعقوص الشعر والكحل والجرار المغلقة، وأيد تدارى السوءات، وحلمات أثداء منتصبة، وحمرة تكسو الخدود، كم من الأعوام قضاها وهو يمشى هكذا، لا يستطيع أن يلتفت خلفه ولا يقدر طريق العودة ولا الزمن، يده ترتعش، وذراعاه ممتدتان أمامه بورقة ظل يكتب بحبر قديم وريشة، ينمق ويحفر ويبكى، ويغرف الكلمات من بحر الأسى والوحشة وقلة الحيلة، حين ظهرت أمامه تلك القاعة الوسيعة عرف ألاَّ حجرات وراءها وأن هذا المكان ينبغى أن يكون له، فلا شىء خلفه سوى جدران تلتحم بقبة مرهونة بالرهبة، ممتدة إلى حيث تنطبق أطراف السماء على الأرض، كم كتب عليها من حروف ورسومات ومعارك وحكم وأخبار وأسرار، هنا توقف وانحنى أمام الجسد والعينين المكحولتين، والذراعين المفرودتين بحجم العطاء والطول، هنا كان يجب ألا يقف طويلاً، ولا يطيل النظرة أو يكثر

الفكرة أو يتأمل عرى الجسد المهيب، العينان تلتقيان، والوجهان لا حائل بينهما، لقد استمرت تلك اللحظة دهوراً وهو يحدق بكل كيانه «الجسد نهر ممتد من الجنوب إلى الشمال، والكتفان جبلان وبينهما يدور الكون» هنا وفوق جبال من أوراق البردى والشكايا وأخبار البلاد والجيوش، وجرار وأقنعة ومنضدة وسرير وتيجان ذهبية وخبز ملكى.. حط شكواه وعاد:

«أيها الملك، لقد جاءوا ليلاً حيث كان القمر ناعسًا فى كهفه القديم، وطائر الرخ يبدر رماد الظلام على الكائنات، وقد أخذتنى سنة من النوم، تسللوا من جوارى، كانوا بطول النخيل وأعمدة الدخان، كانوا يشقون تلال الموج وثنايا الصخور والليل المتناوم، خيول وجمال وعربات ونياشين وقبعات وشوارب، يدكون بأقدامهم ربوع الجسد ويتسللون عبر شفيف الروح، يدوسون رقة فى القلب وحنينًا يعصر الروح، وحرمة المقابر وحبًا لمكان أسلمنى أبى حراسته وعاهدنى أمام طيور الليل أن لا يغمض لى جفن ولا تكل لى ذراع ولا تمتد لى يد ولا آخذ أجرًا من أحد، فى النهار أنا الطواف على زروع الناس، أزرع وأغرس الفسائل وأنقش أحجار الطواحين، حتى تميل الشمس نحو الغروب فأعود مدفوعًا بالعهد والشوق، وعينا أبى تمتدان أمامى معاتبتين ومشجعتين، أتخطى القنوات والطرق والظلال ونظرات الناس قبل أن تغيب الشمس ويأتى وهج النار من الغروب، فأرتمى هنا أمام هؤلاء الأصدقاء من التماثيل ورسومات الجدران ونحوتها والقطط المحنطة، وسلالم تفضى إلى جلالتكم.

ربما يتعبنى عمل النهار وجوع يمزقنى ولقيمات لا يقمن صلب العيال، وأنا الحارس الذى ما نمت ولا خنت ولا ارتخى ذراعى بالعصا، تشهد على طيور الليل وعواء الذئاب والتفاف الأفاعى على قدمى، وعصاى التى أطوحها ساعة هجوم الأشباح واقتراب سنابك الخيل وتسلل الأجساد من حولى، أضرب هنا وهنا، أسمع صراخًا وتهشم عظام وأجساد تسحب وأخرى تعافر، ظهرى يسد الباب، وذراعى نورج فى كومة قش، حتى الصباح أحارب ناسًا وأقنعة وخيولاً مجنحة، يشهد ضوء الشمس وخيوط الدم ونتف الثياب وآثار المعركة الليلية وظهرى الذى ما زال يسد الباب، وعصاى التى ترتفع فوق رؤوس الكائنات، وإصبعى الذى يتعقب فرارهم اليائس، أنام بعين واحدة وأخرى مفتوحة كالذئب، أتشمم رائحة الغريب وأطلق صيحة ترج المكان وتجلجل فى ظلمات المقابر، تؤكد لجلالتكم أننى مازلت يقظًا ومحافظًا على العهد، يا باسط القدمين على النيل، ومانح الحكم والأحجيات، كل ذراعى وتراخت أعضائى، امنحنى فيض الحنطة والحكمة والحيطة كى أتقوت، وأنا أعض على سنين تمر وعمر يشيب وظهر ينحنى، وعظام تتهشم، وأولاد ما عادوا يطاوعوننى ويحملون المهد، وثعابين تراوغنى، لقد كنت أقتلها بكف اليد، بالأمس وجدت ثعبانًا تحت جلبابى، يزحف على لحمى ناعمًا وساخنًا وبطيئًا، يغز رأسه المفلطح فى بطنى المترهل، لا أنكر يا مولاى أن الخوف بدأ يدب فى أحشائى من ساعة أن وجدتهم يلتفون حول المواقد ويستبيحون حرمتكم، كاد الثعبان

أن يفتح فكيه ويغرس نابيه فى صدرى، فاستجرت بآية الكرسى وحزب الرفاعى والصلاة على النبى الذى ضمن الغزالة، حتى زحف هادئًا فى عمق الخوف والزمن والعرق والرعشة التى احتوتنى، فكيف أحميك إذًا؟».

وبكى جدك، حين كان يتشمم عبق الشواء ويرى ارتفاع البيوت الواطئة، وانتفاخ الجيوب، وركوب أهل المكان الحفاة العراة على ظهور الجياد والعربات الحربية والسيارات الكاديلاك بتيجان ذهبية تبرق فى العتمة، تدوس قدماه المفلطحتان أينما يسير على جرار مهشمة ومفرغة من خباياها، ويسمع دق الدفوف ومواكب العرس وراقصات البندر وعيال يتزوجون وذرارى يملأون المكان، تنبش أياديهم الشقية فى الرمال بخبرة آلاف السنين، يستخرجون القطط المحنطة والتمائم، ويمحون بأحجار مسننة طلاء المقابر وزخرفاتها ومواكب العرس والانتصار والمعارف والقرابين والحكايات وصيد الغزلان والأسماك والتماسيح، تلك الحكايات التى كان يحفظها هكذا دون وسيط أو فك رموز حين تجول عيناه كل صباح، وهو يتفقد الجدران والتماثيل والدرج. ويطمئن على حكايات المقابر وأفراحها، وركض الخيول، وتزيين العرائس، وبهجة الألوان على الجدران، فيشارك من يصطاد، ويسمع من يحكى، ويهنئ من يتزوج، ويشجع من يمرق بعربته الحربية لطرد الأعادى ويتشمم رائحة الطعام فى أوانى الفخار، ويتحسس بيده الوجوه المنحوتة وكحل العيون والشفاه الغليظة والنظرات الناعسة، كان يؤكد لنفسه أنهم يعرفونه،

ويبتهجون لقدومه، ويفتحون له خزائن أسرارهم، وكان الحديث يدور بينه وبينهم صامتاً، فيحدثه عن زوجته التى جاءته هنا وطلبت حقها فى الفراش فنهرها خشية أن تصيبها اللعنة، وابنه الذى تزوج من بنت عمه، وأهله الذين يسخرون منه، وعدد الصرخات التى سمعها الليلة وهو يدافع بعصاه ويزود بكل كيانه عن هذه المقابر، كان يود لو يحشر جسده الآن فى ذلك الموكب ويتسمع عن قرب تلك الأغانى وهذا الحوار الصامت بين المرأتين، ربما تتحدثان عنه، تلك المرأة بالتحديد والتى تمد يدها صوب شمس مشرقة دوماً، دائماً ما تتابعه بعينيها المكحولتين، منذ أن يدخل من فتحة الضوء مدفوعاً بالشعاع الذهبى. ومروراً بذلك الممر الطويل، فيقف حيث العينين فى مواجهته، والفم المفتوح يوشك أن يخرج الكلمات، احمرار الوجه وانسدال الضفائر والرقبة الطويلة، الطيور الهائمة هناك ومراكب الشمس التى تعبر على البعد، ماعساه أن يقول لها، كم مرة وقف هنا أمامها، لعب حاجبيه وفتل شاربه وطوح عصاه رافعاً، يدق قدمه ويغنى المواويل العتيقة فيتردد الصدى النحاسى بين الأقبية والتوابيت، إنه يرتكن على حافة الجدار، ويحك بجسده فى صقيع الصخر، ويعدها أن يكتب للملك عن حاجته إليها، إنه يحب هذه البقعة بالتحديد وذلك الأوز العائم، سيطبع روحه هنا معها إلى الأبد، حيث سيزوره الأولاد ويحكون لأحفادهم عن جدهم الذى استهوته نساء الملوك يتأملون جلبابه وعينيه وشاربه، والوشم القديم على ذقنه، وجبهته العريضة.

فى الليل سترفع ستائر الكون، وينعدم الزمن وينفتح العالم، وترسل الشمس ابنها القمر وتدب الحياة هنا، والناس نيام بالخارج، فتنطلق الكائنات الصامتة، وتستحم فى البحيرة المقدسة بين فرح وضجيج طبل، وخبز يعد على عجل، وغزالة تشوى، وملك يتثاءب ويصحو بين الانحناءات والرقصات وبسط الفرش وتقديم القرابين والشكاوى.

وجدك ينتقل عبر الجدار من مكان إلى مكان، ومن حكاية إلى أخرى مهنئاً ومشجعاً ومطمئناً، وقد سمى كل فرقة وامرأة وعربة وبقعة، أسماء مختلفة، حين يرددها يشاركه الصدى وتنصت إليه صور الجدران، ويتلمظ متشمماً عبق الشواء وململماً للأوز الذى يوشك أن ينفلت فجأة فى فراغ المكان.

كل الأشياء يراها كل يوم كما هى ثابتة على حالها، ولكنه يشاركها ويرقص بعصاه فى مستطيلات الضوء وخيوط الأشعة، وهنا.. أمام حضرة الملك، رقصة خاصة، يطوح فيها الجسد كطائر، وينفض الروح من هم السنين، يروح ويجىء أمام العينين المكحولتين والجسد المسجى على وقع دفوف وأكف وجدران تهدر بالحركة، وتتداعى إلى ذهنه المواويل القديمة، والسير المنسية وأغنيات الحصاد فيتدفق الدم طازجاً فى صحراء الجسد الراقص هنا.. حيث لا يد تطول ولا أخدود يفضى، يزداد شباباً وقوة وصحواً وفرحة وهو ينحنى ويستدير عائداً وقافزاً إلى فضاء الله وعمل النهار الجديد.

هو الآن يبكى بحرقة حين يرى الأشياء تمحى، والآذان تصم

والعيال يتسلون برشق الحجارة فى تماثيل مشروعة تقاوم فى يأس تتكسر أنوفها والجباه وروعة الملامح، فتنحنى مستسلمة وتتهشم على مهل.

***

وأنت يا قمرى مازلت تنتظر اللعنة التى انتظرها جدك، ألسنة اللهب التى ستخرج لافحة وجه المدى وشواشى الأشجار والنخيل، وتتصيد المارقين، وتطلق الديناصورات هائمة على وجوهها تقزقز كائنات البر.

تنتظر كما كان جدك يفعل، حين ينصب خصه هناك أعلى الجبل حيث الريح تكسح الأشياء، يقف شارخًا فضاء المكان بعمامة يبعثرها الريح، يحاذر طيوراً وهمية وجمال غيم ترعى فى فضاء الله ويحنى رأسه أمام سرب يمر، ويصرخ ملء الكون وفوق المبانى التى ترتفع «اللعنة ستأكل البيوت.. نار يا نار.. هبى يا نار» وما هى إلا نار الشمس تؤسس فيه جحيم الحمى، وبين شموس وصباحات، وليل وعواء ذئاب، وفرجة ناس، تتعالى نداءات أعمام راجية ومستعطفة:

– انزل يا بووى الله لا يفضحك.

كان ينزل على مهل من أعالى الجبل، يستند على جدر الخلاء، رافعًا إصبعه أمام الأعين، فترتفع الضحكات الساخرة بين أرجاء المكان.

وأنت على هيئتك هذه تستحم بشفيف الضوء وتحايا العابرين، وتدلى سنارتك فى زجاج الماء، تنتظر الفرج، وترسل عينين زائغتين من وراء بحر يوسف.. هنااك.. حيث الجبل الشرقى ممتد بطول

النيل وسيارات تمرق مسرعة من فوق كوبرى المنيا العلوى، ومن بين الميدان والنافورة وشارع الكورنيش ومسجدى المغربى والشيخ على المصرى ومعهد الأورام والمستشفى الجامعى، يطل وجه تفرتيتى، رقبة كمسلة ورأس يلامس الغمام، يستقبل القادمين من الطريق الصحراوى الشرقى الوجوه مدهونة برائحة الجبل واصفرار الرمل وغبار المحاجر، مدن وقرى تنبت كل يوم، وسيارات الطوب الحجرى تشق الطريق بغباوة ووجوه منحوتة وتنقل الجبل الشرقى غرب النيل.

والملكة فى صمتها الأبدى وعينيها المكحولتين تتأمل الخارجين من المنيا، حيث يتجمع المرضى وأصحاب المصالح وعمال التليفزيون والمحاجر والموظفون، يستندون على حافة الكوبرى ويشيرون بأيد متلهفة يستوقفون السيارات المسرعة «بحرى يا اسطى؟ طهنا الجبل؟ نزلة حسين؟ آخر الكوبرى؟ زاوية سلطان؟».

تتكسر نظراتك على شواشى النخيل وصهاريج المياه والمبانى العالية، وشمس شاهدة على ملايين السنين.

السيجارة فى يدك انتهت، ورائحة مؤخرتها مقززة، والسمك يهزّ السنارة المستندة على حافة الشاطئ، أنتظر منك السير والمواويل وشيئًا من عزيزة ويونس، وأنت تنتظر أن يخرج الملك على عربته الحربية وصهيل الخيل، يطارد برمحه الطويل هؤلاء الذين يجردونه من هيبته ويقلقون نومته، ويبحثون تحت وسادته وبين حاجبيه عن جوهرة الحياة، وماء الحنوط، وخارطة المقابر،

والزئبق الأحمر، تتسمع فى إبهام سرمدى صوت جدك الذى جرفه السيل وشق النهر، يعلو ويهبط ويشرخ زبد الموج بإصبع ينتصب كشراع والناس هنا كل عام يقفون على الشاطئ، يعرفون أن النهر كما يأخذ يعطى مزيداً من الوفود القادمة، والأبدان الفارة والمستجيرة بهذا المكان كل عام تتجدد الوجوه وتجدل الحكايات والأسماء والألقاب والعائلات، وهذا العام يرون القادم من هناك على مركب متهالك، يحمى بصدره العريض نساء وأطفالاً ورجالاً ضعافًا يلتصقون ببطن القارب ويدفعون المجاديف فى تعب، وكلما اقترب تبدت الوجوه المنحوتة مصبوغة بماء الخوف والوحشة والفرحة، وبسمات تشق لحم الوجوه بصعوبة، كان مختلفًا، ربما لطوله وضخامة كتفيه ووسع صدره، وهو يميل كطائر أسطورى، ويستخدم ذراعيه كمجدافين، فينطلق القارب مدفوعا باللهاث ولغط الكلام والدعاء بالستر والمدد، كان يرمى بأسرته على الشاطئ كقوالب الطوب، يحملهم فى حفان يده ويلقى على اليابسة، وحين ألقى السلام ونط هذه البلدة رافعًا إصبعه السبابة فأطلقوا عليه (أبوصباع) قال لأهل المكان أنه ولد به، وورثه كابراً عن كابر، إذ إنها صفة فى هذه العائلة، ينزل الطفل شارعًا إصبعه فى وجه الدَّايه والزغاريد، وأنه حاول مراراً أن يجعله كباقى الأصابع ولكن لم يستطع، وإن انتصابه وصلابته وإصراره أن يكون هكذا فى وجه الجميع لا يمنعه من أن يعمل ويزرع وينقش أحجار الطواحين وعندما يتجلى لهم فى خصه، ويضفر الحكايات والمواويل وسير الأقدمين،

ويرى علامات التصديق على وجوههم، وهم يخرجون يقلبون الأكف على حكاياته، إذ به يضحك فى عبه أمام الطيور العابرة والضوء الشحيح، ويرسل إصبعه صوب ظهورهم التى تختفى بين التواءات الدروب،

حتى عندما تجمع الناس حول جسده المسجى على الظل، يبكى أبوك وهو يضع أذنه على القفص الصدرى البارز، وينيم بصعوبة ذلك الإصبع ويقسم أنه مات، كان الإصبع يعاود الانتصاب فى وجوه الملتفين، كان غليظًا ومحمراً وناضحًا بالدم.. رغم اصفرار الجسد وانطباق الأنف كقحف التين، وجحوظ العينين وانغلاقهما على أسئلة وحكايات وأمنيات بأن يأتى الملك إلى هنا شارخًا بحربته صدور الشوارع ليردفه خلفه على عربته الحربية ويلبسه تاج الحارس الأمين، ولكنه الآن استسلم للموت وصقيع الجسد وانفلات الروح فى الفضاء السرمدى، وحين وضعوه فى الكفن كان الإصبع يعتدل جالسًا حتى أحدث ثقبًا بوسع البحر، وعندما دفنوه خرج إصبعه من التراب، مرات ومرات وكلما ردموا بزغ باحمراره بين دهشة العيون وتقليب الأكف والغرابة وصياح بالمدد، حفان التراب تتكاثف وتتعالى وتغط قبة بارتفاع النخيل تعلو فوق المقابر والبيوت، محازية للجبل الشرقى وبيت الجابرى ويطلق عليها أهل المنطقة (قبة أبو صباع).

وأنت فى صمتك العميق تتنصت إلى صوت جدك الآتى من الأزمنة السحيقة حين يقسم وهو يرفع إصبعه فى وجه الجميع أن

إخناتون سيفيق الآن من نومه العميق، ويفرد قدميه على حافتى النيل، يغرف ويسقيكم ماء الحياة، يرشرش هذا الماء الطهور على أجساد تنبت كالبقل، كل ما ذهب سيعود، وكل ما سلب سيرجع، سيقف ناصبًا رأسه فوق سطوح البلاد، سيتعرف على حاجياته، ويمد يده فى دهاليز الخنادق والمتاحف والصدور والمراتب، ستعبر أصابعه محيط البحر وجبال الثلج، أشياؤه ستناديه بألف لغة ورائحة وصوت، عبق أجداده وماء الحنوط، التمائم والقرابين وعقود الزينة وأوراق البردى، عظام خيوله الملكية وأشلاء الأم المبعثرة، التيجان والأسرة والكراسى الذهبية، أحجار نقش عليها بيده تاريخ خروج الجيوش لدحر الأعادى، عدد الأسرى وأسماء الكهنة وخارطة المقابر.

إن يده ستلملم على عجل وتعيد الأشياء إلى أماكنها فى سكونها الأبدى وانتظارها المخيف.

سيعين جدك حارسًا على هذا المكان، سيهبه الهيبة والأحجيات، وفك الطلاسم وقراءة الأحجار وخبايا الأصداف.

سيمنحه ثلاث أمنيات

وجدك يحكى للجالسين:

سيكون حريصًا حتى لا يضيعهم كما فعل جده من قبل، حين وجده واقفًا أمامه عاليًا كالنخيل، كان أول مرة يراه على حقيقته الرائحة العتيقة والساقان القويتان والأصابع المفرودة بحجم الخراف، الأنف المدبب والعينان المكحولتان، الشعر المنسدل على

الكتفين والجبهة العريضة، كتفان عريضان تحجبان الشمس، وعينان حكيمتان، وشفتان تنفرجان عن فم كنهر، وأسنان كشاطئين من صخور متلاصقة، وصوته الرخيم ينطلق من حنجرة نحاسية:

«لك ثلاث أمنيات، اطلب، انطق، هيا، خلص»..

وبين الرهبة والرغبة، وانكماش الجسد ورعشة اللسان، وتذكر الحاجة والعوز وقلة الحيلة وجوع العيال.. صرخ:

– أريد الوفرة والماء والراحة.

فسقط جدك من أحد المراكب وسط النيل، حين جاء الصباح تراص الناس على الشاطئين، تتلاقى نظراتهم عند قبتين عائمتين آتيتين من الجنوب،

قالوا: فرسا نهر تحابا فالتصقا.

وقالوا: بل هو تمساح مشقوق من الوسط.

وقال أمعنهم نظرًا، بل جرتان مقلوبتان قادمتان من مديرية قنا.

وقالوا صومعتان من خشب مملوءتان بالذهاب ساقتهما الأقدار لسعادتنا.

واندفعت المراكب وألواح الخشب وأذرع تعوم ورؤوس تتصارع، تغطس وتقب وتلهث وتهيل الماء، وكلما اقتربت الأجساد منها اندفعت الضحكات والصيحات وتطاير الرذاذ من الأفواه العاطسة، إذ هى مؤخرة بحجم قبة الفرن، موفورة اللحم والشعر، وحين قلبوها وجدوها جثة جدك، يداه مفرودتان بحجم اليأس، وشفتاه مغلقتان على كلمات وأمنيات، وعيناه مطفئتان وغارقتان فى الدهشة،

وإصبعه السبابة يتجه صوب العيون المتطفلة.

جدك يعدل من هيئته وصوته وياقة جلبابه ويقول: إنه ساعة أن يخرج عليه الملك على حين غفلة من أهل المكان، ويهبه الأمنيات الثلاث، سيكون حريصًا ولن يكرر ما فعله أبوه من قبل، سأختار سيفًا ذا حدين بتّارا، لا يكل ولا ينهار، عن اليمين وعن الشمال أجز الرؤوس التى تقترب من المقابر.

قالوا أنت نائم فى العسل.. الآن مدافع وبارود.

فصوب إصبعه إلى وجوههم وواصل حديثه وسط ضحكاتهم المرتفعة.

- أقول أريد حصاناً لا يدرك أطارد به فلول الأعادى.

قالوا الآن سيارات تونوبيل وأحلاهم.

فدنا بإصبعه واستعد:

- أقول جلبابًا وسيعًا يقينى وهج الشمس وغز البرد.

قالوا الآن خوذات وبدل مطرزة.

فراح على عجل يغز إصبعه فى أصداغهم:

«خذ.. خذ.. ما لكم عندى إلا هذا»

فانطلقت الضحكات تعم المكان، بين شماتة وحسرة، وتشف فى هذا الرجل الذى هدمت أبراج عقله، وفكت صواميل لسانه، وهذا الوجه الذى ما زال على جرأته وهيبته، والعينان اللتان طالما أفزعتهم حيث تتعقبهم وهم يزحفون كالثعابين على الرمال ويدخلون المقابر، وحين يهمون بالخروج محملين بالكنوز..

يفاجئهم هذا العملاق بعصاه وصوته الشارخ سكون المكان..

- امش يا ملعون انت وهو.

فيلقون ما فى أيديهم ويفرون هاربين. ينظرون إليه من بعيد وهو يعيد الأشياء إلى أماكنها.

أجيال تتعاقب، نفس الرغبة والتلصص والبحث والإصرار، ونفس وجه جدك الصامد، واقف عند كل منحنى وشارع وفتحة مقبرة يرفع ألف عصا ويدفع بألف لسان، سنوات وسنوات، إلى أن ارتخت اليد وتلعثم اللسان، وسالت دموعه وبرزت ضلوعه، وخانه شفيف الخلاء، فسقط مراراً وهو يتسند على حواف الضوء يتحسس بأسى آثار أقدام استطاعت أن تدخل وتخرج دون أن يدركها، هو الآن يزحف على الرمال يمسك أحجاراً ويرجمهم، فيرتدون ثم يعودون، لقد تعودوا على تحمل قسوة حجارته، حين تدب فى الظهور والرؤوس مرتطمة ومغيبة للوعى أحيانًا، ولكن التى لم تغب عن الوعى أيديهم وهى تحفر وتزحف وتستخرج وتعبئ وتحمل متفرقة فى الظلام.

وجدك كان يتطوح فى صحراء بلا حواجز أو جدران، يحارب ويمنع ويحذر ويطوح عصاه وذراعيه، فكأنما يوشك أن يطير، والصراخ يموت فى حلقه، والخفافيش تنطلق فى عتمة المقابر ضاربة بأجنحتها فى وجهه، يقبض يده ويبسطها بلهفة الأعمى، يريد أن يمسك واحداً من هؤلاء الذين يمرقون كالأشباح من حوله، يسحقه لفح زفيرهم وفحيح الأنفاس اللاهثة والأقدام المسرعة والخبايا

المحمولة على الأكتاف وملء الحجور، فيلف ويدور كراقص أتى من الأزمنة المنسية، يزحف بين نتوءات الصخور ويردد مواويل عتيقة وحكمًا منسية، ويتأملها على الجدار تلك التى تمد يدها إلى شمس مشرقة دومًا وترمقه بعينين مكحولتين، لقد انكسرت نظراتها تهشمت ملامحها ونظرت إليه بعينين معاتبتين وهى ترى حاجياتها والتمائم وقرطًا كانت أمها قد وضعته على عنقها المرمرى وطبقًا من ذهب منقوش عليها اسم حبيبها الذى مات على حدود مصر وهو يصيد الأعادى، كان يتحسس كائنات الجدار التى بهتت، والوجوه المعاتبة تصرف أبصارها عنه فى خصام أبدى وتحتمى بصيع الصخر، كان يود لو يموت الآن هكذا وهو فارد ذراعيه على كائنات الجدار كطائر الرخ، كان يود لو أن آلاف المسامير الآن جاهزة فيلصق روحه عليه هذا الجدار فى رحاب الأحبة، وبكى جدك.. هو الذى خارت قواه فى هذه اللحظة فسقط على الرمال اللدنة يتأمل الظلام فى تعب.

***

والجابرى فى العصرية يتسلى بحفيف الموج على جدران القصر، يلاحظ قطيع غمام يرعى فى فضاء مد البصر، يتشمم عبق اليود ورائحة الأغراب وأياد تلوذ بصمت المدى.

لا شىء سوى هذا الهدير، وانطباق أطراف السماء على الأرض، وخفقان فى القلب، وموت آت من مكان خفى، وعشرات عيون تترصده، وخناجر مسمومة، وكل من حوله فى تلك الدار يتحينون

موته فى أية لحظة، كى يهمد هذا الكرباج المرفوع بحجم التأديب والتخويف وانتظام القطيع ولسع أى واحد يخرج من الصف أو يتهامس من ورائه.

كى تتحرر شجرة اللبخ من أجسادهم المربوطة فى جزعها، وصراخهم تحت وابل السياط النازلة على ظهورهم العارية، من أجل أن يصنع منهم رجالاً يحمون أنفسهم ساعات الجوع، وقلة الحيلة، وفجأة الخصوم، واستلاب الأرض، وذلك العالم الذى يصنعه من أجلهم، هو يخشى جحيم عيونهم التى تطل من الأبواب الموارية، تراقب كل حركة تصدر عنه، حال القعود والوقوف والتمخط والهرش والسير القلق على الأرض الخشبية.

وحين يتأكد أن العيون المنبلجة وراء الأبواب ثابتة فى مكانها وتتسرب إليه من الثقوب أنفاسهم العطنة، يمد يده إلى الكرباج المعلق، فتقفز الرجل متفرقة فى الحجرات، مدفوعة بنحنحاته وضحكاته المتشفية، وصوته الهامس «كلاب» هو الآن فى شرفته يتأمل الأشياء من عل، يعلم أن تلال الموج تحمل معها المزيد من اللائذين ببقايا حياة، وأجسادًا جُرِّدت من ملابسها وبيوتها وأهلها.

ينظر إلى شجرة اللبخ فى مدخل البيت، وهؤلاء الجالسين تحتها من ضعفاء أقاربه الذين لملمهم من بين أرجل البهائم والكراسى والبصقات المنهمرة على رؤوسهم، حماهم من أبناء عمومتهم الذين جردوهم من الميراث والهيبة، أحاطهم بذراعيه وظلل عليهم بكل كيانه وتلقى عنهم الصفعات والكرابيج، وتحمل دية الثار الملفق من

حر ماله ودمه ووقته، خبأهم فى دفء عباءته وحطهم فى نن عينه وعبأهم بالوصايا والحكم، وأخرجهم من تلك المهانة ورفعهم هنا فوق رأس الجميع. هؤلاء الأجلاف قلوبهم قدت من صخر، وأيديهم فى انتظار أن تلملم ما ملك وحاز، يعلم أن مارد الخطر يختبئ تحت جلابيبهم، هؤلاء الذين جاءوا فرادى وجماعات، ولاذوا به فى عتمات الليالى وهياج البحر وتعشم فيهم الود والحراسة ورد الجميل، وأعطاهم أرضًا يزرعونها ودكاكين بقالة وشباك صيد، ووقف يلمحهم من خلف الشيش ها هم يأكلون ويملكون ويتهامسون فيما بينهم، ويسكتون عندما يرونه قادما، ويرسلون نساءهم إلى الخدم والخصوم، لحمًا رخيصًا من أجل حفنة أسرار وذهب وغلال وجنيهات خضراء تسرق من الدواليب العتيقة.

قال له الخدم أمام الليل الداخل وقسوة البرد:

- نحرسك بعيوننا وندفيك بأيدينا.

فضحك فى عبه ونام بعين مفتوحة وهمس فى سرِّه:-

- اللى ما جت من القريب هتيجى منكم.

ونام رافعًا كرباجه أمام العيون.

يعلم أن من يحرسه يأتى من عالم الغيب، من هناك حيث يرمى الموج بأصدافه والمحار وجثث الغرقى وقوارب الصيد وأغصان الأشجار، وحمامات تطير وتعود إلى البرج، وعيناه ناظرتان حد الشوف..

على البعد نتف من ثياب يطوحها الريح، ونسور تتخطف

أسماكاً وجثثًا طافية، وتماسيح تحبو فى خبث، ومركب يكبو فوق زبد الموج، ورجل يعاند الموج، نسوة وأطفال ورجال يتشبثون بالجسد العفى، كان عنيداً ومراوغًا وقويًا، وهو يحمحم على الأجساد المنكفئة فى القارب بصدر عريض، وذراعين كمجدافين تضربان الماء بعنف وتحد وانطلاق يعلو ويهبط ويغيب ويظهر فى أماكن أخرى، الرؤوس تنفض الماء كالقطط المبتلة، والأنوف تستنشق رائحة الحياة من جديد، صراخ وتأوهات وصيحات ودعوات، والقارب ينزلق إلى «الحمراية» فى هذه النقطة التى ينفتح فيها بطن البحر، ويلتقى الماء على أمر قد قدر. ويهز الثور فى الأعماق السحيقة رأسه، فتتزلزل الأرض فوق قرنيه وتغوص القوارب، وعيون الجان تبص من بين كوات وشوارع وأشجار نارية، أجساد نحاسية ورخام وصرير رياح آت من مكان خفى، حجرات تفتح أبوابها وصخور تنفرج عن شوارع ودروب ملتوية وطيور خرافية تشق عمق الجحيم وفضاء الصهد وعيون تكشف خبايا الكون، فتظهر فجأة صور من رحلوا والجد إخناتون، وقرنا مارد يفتح فمه بوسع البحر، وتمساح بحجم الجبل الشرقى، وعجوز تطحن رؤوس الأطفال بين الرحى وتعد طعام الغذاء لهياكل عظمية تقزقز الأذرع والأكف وتركب فوق الذئاب الهائجة هنا حيث تخرج ينابيع الأرض فائرة، دوامة بحجم الدهشة واندفاع الريح وهدير الموج والصراخ المبحوح، من تحتها شارع يمتد من تحت الكنيسة القديمة فى طحا حتى الكوم الأحمر غرب بحر يوسف حيث مدينة

الفرعون (وأوراح نخن) ورأس التنين وعشرات البأواب النحاسية والحجرات والطرق المؤدية إلى العالم السفلى، فوارة بالينابيع ومتدفقة، من هنا سقطت عشرات المراكب، وغابت الأشياء الطافية. وغرقت جزيرة بأهلها كانت هنا عاما أول، ومال النخيل وارتمى على جنبه، ولوحت الأيدى المستجيرة، كانت الصرخات العالية تنخفض وتستحيل ضحكات وزغاريد ونداءات، قالوا جنية البحر تخرج هنا، تدهن الوجوه بزيت الفرحة والدهشة، وتسحب الأجساد المتخدرة إلى كهفها البعيد، وقالوا هنا يرون من رحلوا يتسلقون جبال الفضة ويقطفون ثمار البهجة والأعناب ويرفلون فى ثياب خضر.

قالوا إنه جنون الموت والاحتضار ونزوع الروح ورؤية الملائكة أليسوا شهداء؟

وكل من يبحث عن غريب أو طريد أو يتعقب جثة طافية ينتهى به المطاف إلى الحمراوية، ولحظات ويشعر بدوار حيث الهدير ورذاذ الموج وشهقات الدوامات وهى تبتلع الكائنات، فيرتكن على تلال الصحراء الغربية، يقلب كفيه فى يأس ويقرأ الفاتحة، ويمضى منكس الرأس فوق دمعات تتساقط.

مال هذا الصدر العريض يكسح الأشياء أمامه ويقترب، أية قوة تحميه وأية أيد تفعه، إنه يلف ويدور ويحاول ويضرب النهر بذراعين قويتين وأكف من غضب، على البعد تتبدى أمامه البناية العالية ورائحة الحياة وطمى الشاطئ، والجدران المتلاصقة. ورؤوس كالقلال

وأياد تنتشر والأجساد بين رجليه تتكون وتلهث وتدعو، وكلما ابتعد عن جحيم الدوامات اقترب من بساط اليابسة بين تعب وفرحة ووجوه تبزغ من بطن القارب وتستنشق الهواء الملبد.

أرجل (الجابرى) على السلم نازلة بسرعة، والحصان جاهز فى أيدى الخدم، عفار يتطاير وحوافر تنطلق بين الدروب، هناك حيث أعلى نقطة يتكسر عليها الموج ويرتد البحر يائساً، كان جدك لازال يلهث متعباً، والقارب يتأرجح ويدنو على مهل اليبس، والنسوة من تحت الساقين القويتين والجلباب المفرود يعدلن من أوضاع أجسادهن وشعورهن، والرجل يخلع آخر نتفة من جلبابه ويدارى به عريهن، ويقفز بإصبعه المنتصب إلى طمى الشاطئ وقهقهات الواقفين وصدر الجابرى وبيته وعبر الشوارع تتابع العيون ذلك الفارس الراكب على حماره، يحك بجانب حصان الجابرى، محاطًا بالخدم ومن سبقوه إلى هذا المكان، يتبعه أخوته وأولاده والنسوة ومن رفعهم عاليا ساعة اندلاع السيل وهبوب الرياح واتساع الخلاء وتهشم الجدران. فى الدار الواسعة صعد فوق درجات السلم الحجرية ورأى عروق الخشب والألواح والحوائط المزخرفة والأعمدة والطيور المحنطة والأرضية الخشبية، وجلس على الكراسى اللدنة، والتصق كتفه بكتف الجابرى وتشمم رائحة الطبيخ، وسمع صياح الديكة والأوز وهرج النسوة وهديل الحمائم.

كبش وأكل وخبأت زوجته فى عبها منابًا كبيراً، وتخاطف العيال أوراك الدجاج والخبز، وجال الإصبع المنتصب بين الصحون

والصوانى وأفخاذ الضأن والمائدة العامرة.

كان الجابرى يلاحظه بعينى حكيم، يتأمل التفاتة الوجه وحدة البصر وثقل الحواجب، خشونة الأيدى واتساع الفم وسلامة الأسنان، ونحنات كطلقات وانزلاق الأرغفة بحالها إلى عتمة الجوف، فيزداد انتشاء وتضخمًا وارتخاء على مقعده، يشد أنفاس السيجارة ويأمر الخدم بمزيد من الطعام.

قال له الجابرى:

- بيتى مفتوحلك.. اسم الكريم إيه؟

الطعام يعبئ الفم، والجواب يخرج مهشمًا وممزوجًا بالرذاذ والطعام والهمهما، حروفًا متقطعة ومشوهة الملامح.

- نساوينك يقعدون فى بيتى.

عند ذلك يفرغ الفم من الطعام، ويصرخ بصوت يعلو بين جنبات الدار:

- لا إلا الحريم.

فيندهش الواقفون وينتشى الجابرى لهذه الجرأة والصيحة، والكلمات التى يسمعها لأول مرة، فالكل قد سمح لنسائه أن تبتن هنا، وكلهن لم يبدين أية مقاومة حتى مع الأضياف وزوار البندر وأصدقاء الليل، وفى الصباح يكون الكحل مشدوداً على الرموش، والعيون المتعبة غارقة فى الرضا والتمنى والدعاء بوفرة العيال والصحة. تتلاقى ناعسات على العتبات، يودعن الظهور العريضة ومن كانت صدورهم رحبة وسعة وهدهدة وعنف لذيذ.

ورجالهم يصحون من بين حظائر البهائم والإصطبلات وأرجل الماشية على لسع الكرابيج وعصى الخدم، يجرون أقدامهم المتعبة وينطلقون خلف فرس لا يهدأ وفارس لا يمل.

أعاد الجابرى الكلمات مرة أخرى:

- نساوينك يباتم فى بيتى.

فاندفع إصبعه المنتصب إلى العين مباشرة، فسقط الجابرى على مقعده مزهولاً ومحدقًا فى الوجه الغاضب، عينا جدك حادتان ومخيفتان تتلفتان بين جنبات المكان، على الجدران بنادق مرصوصة وخناجر وكرابيج، لو أن معه واحدة من هذه البنادق ما جرؤ أحد أن يحدثه عن نسائه هكذا، أو أن يتسلل أحد من جواره هناك بين المقابر، ولا طاردوه بين الدروب، كان يود لو أن له بندقية ولو خالية من البارود، يعلقها هكذا فى الكتف العريض، ليخبر القريب البعيد والبصير الأعمى، أن أبا أصابع له إصبع من بارود ويصيب الطير فى الهواء ويفقأ الأعين المتلصصة.

والجابرى يتابع باندهاش اتساع عينيه وحركات يديه، حيث بإشارة من الإصبع المنتصب خرجت النسوة رافعات الرؤوس، ينتصبن فى المدى كمسلات، ويذهبن حيث رسى المركب هناك ودقت أوتاده وارتكن على نخلات تملن بجذوعهن على صفحة الماء، فآثرن هذا المكان حيث خط القدر بإصبعه محل إقامتهن، ورحن يجمعن الجريد والحطب وجزوع الأشجار وفلق النخيل ويصنعن خصا قبل مجيء الليل، والآن، وقد عاد الجابرى إلى رشده، الأشياء على

حالها، والرجل واقف مازال، يملأ بصدره فراغ المكان،

أمر الواقفين أن يذهبوا، بل أمر أهله وخاصته أن يجلس كل واحد منهم فى حجرته ولا يخرج، وسحب بندقية محشوة بالبارود، واقترب من جدك هامسًا:

– ايه رأيك تبقى الحارس بتاعى واديلك خمسين فدان.

فوثب جدك وهشم الفضاء بألف بصقة، وحاصر الجابرى بإصبعه وهدير أنفاسه، ودك صوته جنبات الدار فسمعه من بالداخل.

– اسكت لا احط صباعى فى عينك.

أوشك الجابرى أن ينهار، حيث لاذ بالجدران واحتمى بأشيائه المعلقة، كانت المرة الأولى التى يسمع فيها كلامًا مختلفًا ووقحًا وغائظًا ومهيبًا، وهو الذى لا يسمع سوى تأوهات وصرخات ودعوات بدوام الصحة ووفرة المال، ربما كان محتاجًا إلى هذا الكلام، وذلك العنف، وتلك القسوة، رجل يذكره بأبيه عندما كان يفاجئه وهو يلعب السيجة مع الخدم فيلسع الظهر الصغير بالكرباج، ويصيح من فوق حصانه:

– عمرك ما هتبقى راجل.

كان الضرب مؤلمًا ولذيذًا ومدغدغًا للجسد، وحين يغزغزه الوجع ليلاً، يئن بحنين لا ينقطع، كان يحتمى بأبيه ساعة انطلاق الرصاص وتلاقى العصى والأصوات وهياج الكائنات هناك بين اتساع البساتين والمزارع والجدران هناك فى البيت القديم الذى ضم العائلة والوجوه والشوارب التى وعى عليها، فعرف أعمامه

الكثيرين وأبناءهم، وساعات الصراع على الأرض والنساء، ورأى شاعر الربابة يحط على بابهم، والخواجات الذين كانوا يأتون من كل مكان، وصاحب الأبعدية، الذى كان يأتى من المحروسة، حيث كان يركب مع أبيه المركب الشراعى من عند إطسا ويشق صفحة النهر، أيام بين أغانى زفاف وناس ينزلون وآخرين يركبون، حتى عاد أبوه ذات يوم يطوح شاله فى فسحة الدار بين رقصات أبناء العم والنسوة ويهتف بالبشرى:

«صاحب الأبعدية سافر ولن يعود».

عندها دقت الطبول أيامًا ورأى الرقصات لأول مرة، حيث نمن فى البيت القديم هناك على حافة البحيرة، ونام معهم الأعمام على الأسرَّة، ووقف الخدم يراقبون الأبواب ويلمظون شفاهم على آهات تنطلق بالداخل، وأبوه بات ليلته رائحًا وغاديًا على أرض الحجرة أمام عين الأم، كانت ترجوه أن يرحم نفسه وينام، ولكنه يبصق فى وجه الجدران والأبواب المغلقة ويقول:

– الكلاب مش هايبطلوا المنقصة دى؟

ويتأمل الولد الذى يقاوم النعاس الثقيل، ويتناول كلما التقت عيناه بأبيه، فيدنو منه، ويمسح على الوجه الطفل بيد من حرير ودفء يضمه إليه حين تموج الكائنات فى البرك القديمة، عواء ذئاب وريح تدشدش الأشياء وتطوحات نخيل ومروق طيور ليل، والصغير يلوذ مرتجفًا بأعمدة السرير وبراويز الجدران والألحفة، وأبوه يأمر الأم بالمبيت فى الحجرة الأخرى، يغلق الباب عليه ويصر أن ينام

وحده، بل ويمنع الخدم من الاقتراب من حجرته، وربما أطلق كلبا يزيح الباب ليفزعه، والأم فى حجرتها تستجديه أن يرحم ابنهما، ولكن بإشارة من عينيه يغطس جسدها تحت الألحفة، ويأتيها صوته حكيمًا وحازمًا:

– خليه يعتمد على روحه، ماذا كان يريد، ومم كان يخاف.. فى الأيام الأخيرة كان دائم الشرود، يشكو للأم حال إخوته الذين باتوا لا هم لهم سوى السهر والخمر والراقصات وبيع الأرض، ومصادقة اللصوص، والمكائد، ونط الجدران على الفلاحين واستباحة حرماتهم، أخذوا منه مفاتيح الشوانى والخزائن، وتآمروا عليه، هو الابن الوحيد لعمهم الذى ملك وحافظ واشترى وأضاف، لماذا يكرهونه، رغم أنه لم يسئ اليهم أو يعترض طريقهم، أهى النصائح التى لا يستيجبون لها وهو يصر أن يوجهها إليهم فى تجمعاتهم، يلقيها هكذا فى وجوههم اليابسة «الأرض عرض يا أولاد عمى» فيهزون أكتافهم الساخرة ويتفرقون، أهى فضائحهم التى تزداد كل يوم، أهى نساؤهم اللاتى لم يستشرن أحدًا فى الزواج منهن، منذ أن مات الجد الذى كان على علاقة خاصة ببلاط الملك، والناس بدأوا يتطاولون عليهم.

يقول ذلك للأم التى ما زالت تخبئ وجهها الخائف بين الألحفة وتجيبه بهمهمات خافتة حتى نامت.

وفى الصباح كان لا يرى أثرًا للدهشة أو الشفقة على وجه أبيه.

كان لا يضحك ولا يكثر الكلام أو الفصال، حتى عندما تهموه

بقتل ابن عمه لم يفزع أو يتغير وجهه أو ينحنى لأوامرهم أو يكرر كلامًا سبق أن قاله ورد على الذين حاصروه فى المندرة بنفس الوجه الذى ما تغير.

– لست أنا الذى أقتل ابن عمى.

وما أعادها رغم اتفاقهم على رحيله من هذا المكان، ويقينه أنها مكيدة منهم لإبعاده عن أرضه التى ورثها عن أبيه وأضاف إليها فدادينهم التى كانوا يبيعونها للناس، يشتريها بأثمان مضاعفة، ويلملم العار الذى جعلهم يبعيون أرض أجدادهم لهؤلاء الأغراب، كان يعلم أن الحياة مع هولاء باتت مستحيلة، وأن رحيله بابنه وزوجته هو الحل الوحيد قبل أن تدب الرصاصات المباغتة فى عمق الصدور، ويصبح وأسرته ذكرى لا أثر لها حتى عندما قسموا الميراث قسمة جائرة تحت تهديد البنادق والعصى، وخصوه بردىء الماشية والخيل من ضعف من الخدم، ووقفت القسمة بين عبد وثور، اختاروا هم الثور وارتمى العبد فرحًا فى حضن سيده، كان الهملة والضعفاء والعجزة من أهله يلتصقون به كأفرخ الحمام بين بكاء وخوف وفرحة، فسكت عاضًا على وجع السنين وجفوة الأهل وهو يمضى بهم إلى مكان آمن حيث النهر يطوق هذه البقعة الهادئة من جهات ثلاث، كان النهر منبسطًا حتى رمال الصحراء الغربية، هنا وقف وعاين وتذكر مقولة أبيه وهو يعلمه لعب العصا:

– احم ظهرك أولاً واضرب شمالاً ويمينًا.

فاختار النهر ظهرًا وحماية وخيرًا لا ينقطع.

والذين جاءوا من أقاربه هم سقط المتاع ومن لا حيلة لهم، أرادوا أن يفروا من مكان طالما حاصرهم فيه الألم والحزن والمتاعب، وتحميلهم أعباء عائلة، وميراث الثأر والخطف والضرب، واستلاب الأراضى وطرد أهلها حتى مديرية بنى سويف أمام بارود يتطاير وسيوف تجز الرقاب، وكانوا دروعًا لهم، وخدمًا ساعة الحاجة وأيدٍ تسند الأقدام ساعة ركوب الخيل والجمال ونط الجدران العالية، إن الفرار مع الجابرى أهون رغم قسوة كرباجه وصوته الآمر فإنهم فى النهاية يسودون من جاء بعدهم إلى هذا المكان، وينفثون غلهم القديم فى النسوة والأطفال ومن يرميهم النهر كل عام إن الذكريات تتدفق جلية ورائقة، يريد أن يفضفض الآن ويزيح عن صدره تلال الهموم، رغم الغيظ الذى يحتويه، وهذا الرجل الذى فاجأه بهذ االكلام فزلزل كيانه وأعاد ترتيب الأفكار والأشياء فى رأسه.

إن جدك الواقف أمامه كمسلة يقول كلامًا آخر:

قال له: أنا لا أحرس إلا الملوك.. وأنت لست ملكًا، انظر إلى وجهك، تأمله فى مراياك الكثيرة، أنت لا تصلح أن تكون ملكًا، ولا هذه الأرض مملكة، كم عمقها؟.. إنها طرح نهر وهبة النيل

الخارج من بيت شفتى الملك، اغرس فؤوسك جيداً.. اغرس عمق الغيظ والحيلة واللهفة والاشتهاء، لن تجد سوى طميًا وأصدافًا ميتة وماء، هناك وفى حفرة الملك ترقد تلال الذهب وخزائن الأرض وتنام الكائنات على بهجتها، ويتكئ المدى على حضارة الجبل الشرقى، حيث ينحنى الغمام غاسلاً وجه التماثيل وتستحيل الصخور عصية،

من أنت؟ أنا أعرف.. لن تخدعنى بذلك الحصان وتلك العصا، فقد كنت أملك عصا الملك، كان يمنحنى إياها كل مساء ويمسح بها جسدى، حين يخرج من تابوته متنزهًا، حيث ينام الليل على كائناته، وحيث لا يراه أحد سواى، كان مهيبًا حد الدهشة حين يمتطى عجلته الحربية، ويجلس هناك على صخرة كنت أعرفها، يتأمل الكون بعينى شاعر ويخط على أوراق البردى ويحادث طيور الليل، ويغرف حفنات من ماء النيل وينثر، كم من مرة رشنى بماء البهجة وعبأنى بالحكم التى لم أكن أعرفها، ولقننى أسماء قرابته وخاصته وقدمه والكهنة وامتداد الجدود والحدود والأزمنة، حلفنى أن لا أحرس أحدًا غيره.

فهمس الجابرى فى أذنيه المدفونتين تحت العمامة:

قال سأبنى لك بيتًا كهذا وخذ من الأفدنة ما شئت، أبيح لك بيتى وخدمى، أرفعك فوق قرابتى، أمنع عنك كرباجى وبطشى، أسلمك مفاتيح خزائنى وأسرار بيتى، فقط احرسنى من أبناء عمومة يتعقبوننى ويترصدوننى فى الأسواق والطرقات، العام الماضى قلتوا أخى، ترصدوه على أول الطريق، حددوا موضع السيجارة فى فمه وأطلقوا البارود، فماتت الكلمات فى حلقه، كنا قد أعددنا العرس وجهزنا الفرش، مال على بدفء السنين وأدب كنت أخشى عليه من فرطه، وقال: سأذهب إليهم بنفسى وأدعهم للفرح ونلم الشمل. كان رقيقًا وشفيفًا وخالصًا وابن طريقة وهائمًا فى حب النبى.

يتتبع حلقات الذكر فى البلاد البعيدة ويفر إليها بحصانه،

ويعود آخر الليل إلى حجرته، يصلى ويذكر ويعلو إنشاده حتى الصباح بين دموع الخدم وبكاء النسوة، كان صوته نديًا حين يتلو القرآن الذى حفظه فى الأزهر، وعاد قبل أن يأخذ العالمية عندما علم بما حدث، بكى أمامهم وقال «أخى لا يقتل وأحلف على هذا المصحف» ولكنهم كانوا قد بيتوا النية على إبعادى وأخذ أرضى.

قالوا «أخوك فى داهية. وأما أنت إن أردتنا ابق معنا، وإن أردته فاذهب ولا شىء لك».

راح يقرأ عليهم فقه المالكية والمواريث وعقوبة المغتصب ومن اقتطع شبرًا من الأرض بغير حق طوقه الله إلى سابع أراضين يوم القيامة».

بكى أمامهم وسال دمعه الغالى أمام الوجوه المتجهمة، قالوا نعرف ما تقول ولا شىء إلا ما قلنا.

فجلس على كرسى فى مدخل الدار يقرأ فى وجوههم حزب النصر، ويرمى بحصيات فى الخلاء المخادع، صلى وسجد وقام وقال «أخى نعيش سويًا أو نموت سويًا».

فحبست دمعات كادت تفر من عينى وأردفته خلفى وأتيت هنا.

تركته لحاله، لا أسأله عن شىء ولا يأخذ منى شيئًا، كان يصيد السمك ويشوى ويأكل، وكان يستدعى أهل الحضرة من كل مكان، ويرفض أن يقدم لهم شيئًا من مالى يقول: «نفحة شاى تكفى».

كان رقيقًا حد النسمة، حين يتطوح ذاكرًا وداعيًا وطائر كحمامة بيضاء وسط همهمات الذاكرين وعبق البخور، قالوا كان على قدم

وصاحب خطوة، وصاحبه الخدم وضعفاء المكان، وعاتبنى فى حقوقهم التى آكلها، وأجورهم التى لا أعطيها لهم إلا عن طريق البقال، قال إن البقال ينهب حقوقهم ولا يعطيهم إلا البضاعة الفاسدة، كان يحذر منه، وكنت لا ألتفت كثيرًا لما يقول، أقول له «كن فى حالك».

فيلوذ بالصمت ويعود إلى حجرته. نسبت إليه فقالوا أخو الشيخ وكان الجالسون من قرابتى عندما يرونه يتحاشون نظراته التى كانت تنطلق إلى أعماقهم، يشعرون بأنه يعريهم على حقيقتهم.

مرة شتمنى جلال ابن عمى، فأمسك به وكاد أن يعصره بين يديه وقال له «لا تشتم أخى مرة أخرى، ثم طوحه كقشة. كنت أحس أنه لا يعرف أشياء عن جلال والبقال والآخرين، لكنه لا يصرح بذلك بل يهمس فى أذنى «يا أخى أعط كل واحد حقه» قلت له نزوجك زيجة تصنع لك مكانة وتضيف عائلة ونحمى أنفسنا، قال سأتزوج بنت شيخى.

هناك فى البلاد البعيدة كان يسافر إلى شيخه، لا يأخذ شيئا معه سوى عباءته ومخلاة بها أسماك مشوية. وعندما أقول له نعمل لك زيارة تشرف. يطاطى على ويقول: «الله يساعدك يا أخى».

ثم ينشد أمام المارة..

مقلتى قد نلت كل الأرب

هذه أنوار طه العربى

ثم يغيب كفرخ اليمام. فى كل مرة يعود.. أطلق الأعيرة النارية ابتهاجًا، وأنزله من على حصانه بيدى وأمسح عمامته وآخذه فى حضنى، ساعات طويلة، أتشمم فيها عطرًا خفيًا وأشعر بسكينة تحتوينى ورقة تسرع فى ربوع قلبى، وآمر الرجال بصف السامر ليالى وذبح الخراف.

ويستدعى هو الأحباب من أهل الحضرة ويظل الذكر حتى الصباح، يا االله.. كان ذاهبًا ليدعوهم إلى فرحه، كان يحلم بأن يرضيهم، قال يا أخى أعطهم ما يطلبون من أرض وجمال وخيل، أعطهم الدية مضاعفة حتى الثوب الذى علينا، إلى متى نصبح هكذا عرضة للطرد وصوت البارود المنطلق علينا من كل مكان، أتظل هكذا تفتح عينا وتغمض الأخرى حين تنام كالذئب، يا أخى لا يشعر بك غيرى، لقد زحف الشيب إليك وخاصمتك الضحكة.

قلت له لم أقتل ابن عمى، وأحلف أمام الله وأمامك يا ابن أبى وأمى أنى لم أقتل أحدًا، ابن عمك كان له أعداء كثيرون، وكان يهجم على النسوة فى البيوت وينط من فوق الحوائط، ابن عمك باغته الفأس ووجدوه عاريًا وعضوه مقطوع، فلماذا أفعل ذلك، وما الدافع، لقد كان فظًا قاسيًا مع كل الناس، حتى مع إخوته الذين يطالبوننا الآن بدمه، لقد كتموا فرحة فى صدورهم عند سماعهم خبر قتله، وجلسوا يتداولون الأمر، قالوا: نضرب عصفورين بحجر واحد، نطرد ابنى عمنا وتكون الأرض لنا، وقتيلنا وقاتلنا أولاد عم، فلا معيرة ولا مسخرة هكذا قال لى عمران العبد على درجات هذا

السلم بعد ان استقر بنا الحال هنا.

ألم أحذرك يا ابن أم ألم أقل لك لن يقبلوا سوى رأسينا سيستأصلون أصابعى ويقطعون عضوى ويحملوننى - كما أخبرنى رسولهم - على حمارة، معصوب العينين ملطخ الوجه فرجة لأهل البلاد.

كان يحكى لجدك الواقف يرفع إصبعه فى الضوء الباهت.

قال له إن هؤلاء أقاربى الذين جاءوا معى إلى هذا المكان، والذين يتكئون على هذه الوسائد، ويدخنون الحشيش ويفتلون شواربهم، يتحاكون بليلة الأمس وعدد النسوة اللاتى اغتصبوهن ومن أجملهن، وأزواجهم الذين وقفوا خارج الأبواب منكّسى الرؤوس بجوار الأحذية.

هؤلاء الأجلاف الذين أكلوا ومسحوا أفواههم فى أكمام جلابيبهم وخرجوا أمامك، لا يريدون سوى أرضى، فهؤلاء العصاعيص لهم نفس الوجهة، حذرنى منهم أخى رحمة الله عليه، قال انتبه، سيميلون عليك ميلة واحدة، أكثر حراسك وخدمك.

عرقهم الجبان من أمهم التى تزوجها عمى الضعيف من وجه بحرى، أبوهم خليل الضعيف ابن عم أبى الذى كان يحنو عليه أبى، ويهبه أرضًا يزرعها، ويطعمه وأولاده كما يطعمنا، ويغضب من قسوة أعمامى عليه. ويقول: «الضعيف حقه ضائع» وكانت اللعثمة فى لسان الضعيف وهزاله الذى يدعو للشفقة يجعلانه لا يجالس الرجال ولا يحضر المواعيد ولا يعتد به، تزوج نسوة كثيرات،

وأنجب من رأيتهم الآن هنا، ذرية ضعافًا لا يردون شرًا ولا يجلبون خيرًا، وعندما مات بكى أبى بكاء شديدًا وأصر أن ينصب عزاءه أربعين يومًا، حتى وإن لم يأت أحد، سيظل المقرئون الذين جاء بهم من كل الجهات يقرأون ويأكلون من حر ماله رغم تجاهله الأخوة الآخرين حتى انهم من فجورهم كانوا يزوجون أبناءهم قبل الأربعين، ويأتون بالراقصات من البندر، وينصبون الأفراح ويذبحون الذبائح على عتبة الدار، وكأن الذى مات كلب، وكأنه ليس من لحمهم ودمهم، قال أبى إنه ظل جالسا فى العزاء، أربعين يومًا لا يحلق ذقنه ولا يقرب فراش زوجته ولا يلاعبنى ولا يحضر أفراحهم التى كانت تحدث فيها المسخرة أمام أعين الناس، من تجريد الغوازى من ثيابهن، والرقص أمام الناس عراة.

وما تم فرحهم ولا زف عريسهم حتى حرقت أجرانهم وسرقت بهائمهم وقتل ثلاثة من خدمهم فى ضجيج الفرح، أولاد الضعيف كانوا فى ذمة أبى، هكذا أوجب على نفسه، وقال: «كرامة لعظم التربة» ولملمهم من جحيم أعمامهم وعصيهم، كانوا يريدونهم خدمًا لهم، وكادوا أن يستعبدوهم بالخوف والترغيب. فوقف أبى فى وجوههم وقال «إلا أولاد الطيب» ولكن الطيب ذهب بزمنه، وبقى أولاده الذين آثروا أن يتبعوننى ويكونوا هنا معى، كل يوم تظهر لهم أنياب جديدة ومخالب، تراهم تحت شجرة اللبخ يتسلون بلعب السيجة والشايب ونتف اللحى والتشفى فى جسد مربوط يضرب بعشرات الكرابيج، ونط البيوت ليلاً واستباح لحوم النساء

لا هم سوى ذلك، لايعرفون أن فدانًا من الأرض يضاف.. يعنى حماية وسترًا وعرضًا وشبع بطون وعلو مكانة وصفعة فى وجه هؤلاء الذين طردونى وهشموا فى ظهرى عشرات القلال، وأنا أرحل ومعى أخى وفقراء العائلة والعجزة والمغضوب عليهم، قالوها أمام المتجمعين فى زحمة السوق ورجال البدو ومن حضر الميعاد:

– لو رجعتم نرميكم للكلاب.

وهؤلاء ما إن جاءوا إلى هنا حتى بحثوا عن ظل وماء وتمر وحريم، وأنا أجرى هنا وهناك، أرفع كرباجى فى وجه الليل العنيد والظلام والعصى المنهمرة والطلقات الطائشة، صادقت من لا يصادق. فتحت بيتى للصوص وأولاد الليل ومطاريد الجبل، ولم يكن خوفى من الذين يطاردوننى فقط، بل كان أيضًا من هؤلاء الذين يأكلون خيرى ويدبون سكين الخيانة فى ظهرى، تأتينى الأخبار أنهم يقابلون خصومى فى الأسواق، يقفون معهم بالساعات ويعودون محملين بالفاكهة وجلف الحشيش وجوزة الطيب وزجاجات الخمر، يجلسون هنا على فراش الظل قريبًا من عتبة بابى، يرسلون عيونهم وآذانهم يتنصتون على كل كلمة ويراقبون من يأتى إلى.

وجدك الواقف أمامه فارس جاء من الأزمنة المنسية وعمق الصخور والأحجيات، يستطيع أن يسحق الجميع بهيبته ونظرات عينيه الناريتين، وجحيم يديه المفرودتين كمطرحتين وإصبعه الخارج من صف النخيل قويًا لاينثنى.

يقترب منه الجابرى ويهمس:

من لها غيرك يا رجل، خذ بندقيتى هذه، خذ حصانى وطف حول المكان صائحًا بنحنحاتك المجلجلة، أريد أن أنام مرة مطمئنًا وأغمض العين الأخرى، أريد أن أحلم برؤية أخى الذى مات قبل ليلة عرسه، كان رائعًا وهو يرينى عباءته والسبحة الكهرمان التى أهداها إليه شيخه وخاتم الفضة والحناء التى صبغت يديه، ويطمئننى على مدى فطنته وذكائه وحسن ظنه، ويحلف برقبة أبينا الذى ما ظلم أحداً، أنه سيعود بهم، يسبقهم بارود الفرح والزغاريد والبهجة، ستمتلئ بهم تلك البقعة الخالية أمام البيت، ستتلاقى الأحضان ويجتمع الشمل ونعود على مكان لعبنا، ورائحة الجدود والأشجار التى كنا نرويها، وبرج الحمام وتكعيبة العنب التى كانت تحتوينا ساعة العصارى.

قال: انتظر سأعود، ورمح بحصانه، رافعا إنشاده:

لله رجال قد صبروا

وبسعدهم سبق القدر[1]

وحتى انتصاف الليل لم يعد، ولكن الذى عاد به هو حصانه، هائجًا ومتخبطًا فى الظلام، ووقف الحصان هنا منكس الرأس غائر العينين، كان أخى مترنحًا عليه منبلج العينين على فضاء الدهشة، وفمه المفتوح تبخرت منه عشرات الأسماء والدعوات والأذكار والفرح والأناشيد والفضفضة واسم عروسه وشيخه والنصائح.

دمه الساخن تلوى مع الدروب ووقف على عتبة الدار ينقط، صرخة فزعى ورعشة جسدى ولهفى وغياب الوعى لحظات، وأنا

أعاند دمعات تتفجر كالينابيع فىَّ، أكظم غيظى وحقدى وأدارى لوعتى واضطرابى أمام تلك العيون الشامتة، أضم الجسد المترنح والروح المنفلته، أعبئه بدفء أنفاسى وحشرجة صوتى، والجسد الساخن يوجه إلى عينين معتذرتين، طالما كان يواجهنى بهما وهو صغير حين أعاتبه فتستحيلان صافيتين كماء البئر القديمة، وهو يضمنى بين بكاء واعتذار وفرح وأدب ربانى، يجعل الدمعات تفر من عينى وهو يستسمحنى ويقول:

«سامحنى يا خوى عيل وغلط»

«ياااهـ يانن عينى، يا ذراعى ياخوى، رميت نفسك فى وكر الديابة»

«حقك على اقطع راس اللى قتلك وابصق عليها».

أرجل تقترب وتبتعد، ونسوة يولولن بالداخل، ندب وصراخ وتراب يغطى الوجوه، وأقدام حافية تدك الأرض فى رقصة جنائزية حول الجسد، وعيناه لا زالتا مفتوحتين، وفمه مغلق على الأسئلة وانطفاء الكلوبات والزغاريد وصوت العروس كمداً، والنعش فوق الأكتاف يفوح بالمسك ويدفع حامليه عبر الشوارع والزروع، بين تهليل وتكبير وحزن وبهجة والتصاق بالنعش الذى أوشك أن يطير فوق أبدان تلهث وتنكفئ وتعتدل، حيث آخر قطعة طمى أرسلها النهر بعيد عن العيون، هناك حيث تنمو أشجار السنط جارحة بشوكها حرير الخلاء الشفيف، وما زال الناس يتوافدون من كل الجهات يرددون البردة والأناشيد ورأينا طيوراً خضراء تحوم حول

المكان، والنهر ينحسر لابداً بين الشاطئين، قالوا وليًا، وقالوا شهيدا، وضحك أقاربى فى عبهم وعادوا من المقبرة يتغامزون، وأنا أتحامل وأتسند على شفيف الخلاء وجدران الغيظ وذكريات جمعتنى بأخى رغم انطباق الجفون، وصوت أخى يتخطى حجب الكون ويأتينى مدغدغًا ثنايا الضلوع، وغاصا فى تلافيف الروح والجسد وهو يداعبنى ويستسمحنى ويقول هامسًّا «سامحنى يا خوى عيل وغلط».

هو يحكى ويجود بالدمع فى حضرة جدك ويلمح بين الحين والآخر وقع الكلمات وأثرها على وجه الغريب، كان جدك ما يزال يرفع إصبعه فى وجه الجابرى ويقسم ألا يعمل حارسًا لأحد غير الملك، وقال للجابرى:

«لما ارجع للملك ها حكيله حكايتك».

فقلب الجابرى يديه فى حسرة على عقل جدك، وصرخ بامتداد الكون ونادى خدمه، وسحب كرباجه، وبحجم الغضب والرفض وسعة الفضفضة وانفلات السر.. نزل على جسد جدك يصنع خطوطًا وأسماء وأخاديد ويحفر اسمه حروفًا تتلوى وتتشابك كخارطة على الظهر العريض.

(١) من التراث الصوفى.

«تداعيات الضحى»

الشجرات المتجاورات يملن على بعضهن ويتهامسن فى نسيم العصارى، ما عساهن أن يقلن هن المتكئات على شرفات المدى، الأفرع الهائمة فى فضاء الله تبص على المقابر البعيدة.. هناك.. حيث ككل عام يتوارى حصاد النهر تحت التراب وظلمة القباب «صبية وعجائز وقتلى، وشهداء نسفهم الطاعون». فماذا ترك النهر سوى أياد تكبش حفان التراب وتصنع جسراً يتلوى، ويجبر بحر يوسف على الانحناء صوب البلاد الأخرى، كتل من الطمى تتلاصق وتعلو وتمتد بين لهاث وعرق، وخوف وترقب، وأنين يفجر الأغنيات الحزينة والندب المطوط. والنهر يحك بموجه فى عتبات البيوت ويبتعد يائسًا، يندفع فى اتجاه البلاد البعيدة.

فالجسر الذى امتد، يحجب الماء من بيوت طينية متناثرة، تميل

على الخلاء بجدران نخرة، وسقف أنهكها صرير الرياح، ونسوة تتلاقى رؤوسهن فى شمس الضحى، وهن ينسجن الأقاصيص الملفقة عن بلاد تركنها، وعز وعزوة، ومال وكثرة، وبساتين وفرحة، أكاذيب تتطوح وتمضى كطائر البطريق مصحوبة بمصمصات الشفاه، (فالكشك) هذا العام عام فوق تلال الموج، تتلقفه أفواه الأسماك المفتوحة، ورؤوس كالأحجار تنقض على الكائنات، قالوا إن تمساحًا ظهر عند (أدمو). ظنوه خشبة، وكان يشق الماء فى صمت ورهبة، ثم وثب آخذًا رأس الجاموسة بين فكيه، فهرب من كانوا لائذين بالمكان، يتابعون من بعيد بعيون خائفة جاموسة تعافر وتتخبط وتستسلم وتسحب تحت الماء.

هدير وفقاعات، وأيد ونسوة يلطمن الخدود، وصاحب الجاموسة يهيل التراب على رأسه ويمزق بأظافره سنارة الخلاء، وحصير الماء يلتئم على مهل ويعود هادئا ورائقًا.

بيوت الحلب هناك، متروكة لأيدى العابثين، لا شىء فيها سوى قصاقيص ملونة، وعقوص شعر، وحلف بر، وخبز يابس، وبراز بين الأركان، وضوء باهت، وحوائط مسودة من هباب المواقد، ورؤوس عيال مجزوزة، وأعضاء مبعثرة، وبخور عطن.

لقد خرجوا ساعة هياج البحر واندلاع الريح والنار فى حطب السطوح، هم الآن هائمون على وجوههم بين دروب القرى، وأعشاب الجسور. وهيش المستنقعات، يتقنفذون كعجائز الأحجيات، وهج العيون، وامتداد الضفائر بالعقوص، حمائم الوشم

على الذقون، وحلق الفضة فى الأنوف، أصواتهم نحاسية ورفيعة وشارخة فضاءات الشوارع، نداءاتهم تنمو بين الدروب، وتصحصح عيال الجن والأفاعى المستدفئة فى بياتها الشتوى، كائنات الأرض، وحراس المقابر، ومردة الشياطين، والأحجبة المدفونة تحت عتبات البيوت.

ينطلقون هكذا دون توقف، حافظين للأسماء والقرى وأصول العائلات، وما خبئ فى الأزير والصوامع.

يشقون بحميرهم الهزيلة بطون الدروب، هن ضاربات الودع ومستخرجات أسراب الدود من الرؤوس، وممنيات للبنات باقتراب الزواج، الزيت العطن، وأيديهم تمسح على الوجوه، فيتخدر الجسد، وتنبلج العيون، وتزحف الأيدى برفق إلى الصدور والسرور والرقاب، تسلت الكرادين والخلاخيل والجنيهات الخضراء المدفونة فى الصدر، وتدس العقارب فى ثنايا الصدور. حيث الصرخة والرعشة والموت وتخشب الجسد، حتما سيمرون من تلك الدروب، يطوقون بألسنتهم عقول الرجال، ويجزون الأعضاء، يلفونها بتراب الفرن والتعاويذ، ويرحلون بها، حيث سيستخرجون الكنوز والثعابين ويربطون العقارب فى عقوص الشعور.

سيمرون من هنا ككل عام، يمدون أيديهم بذل السؤال، وعيونهم على ولد أقرن الحاجبين، يذبحونه على فتحة الكنز، ويلطخون جدران البيت بدمائه، هم لا يريدون سوى الكتاب والمكحلة، دائمًا لا يجدونه ولا يجدون الذهب، دائمًا يدفنون

ضحاياهم تحت قباب الأفران، تخرجها (اللجة) كل عام، رؤوس كالقلال، وعيون مثقوبة، وأسنان جازة على جحيم الغيظ، وأيد كابشة ضوءاً تسرب، وشعور عائمة معلقة بها الأجساد.

هم قادمون من هناك، يراهم العيال على البعد لابدين فوق ظهور الحمير، يلفون أجسادهم بسود العباءات وينظرون من تحت الطرح، وشم الذقون، وعبط الكحل، وثقب الأنف بحلق الفضة، فرادى وجماعات يأتون، معهم الجعيدى بطبلته وطربوشه الأحمر الكبير، يربط فى زره خشبة صغيرة تتطوح على الجبة الخشنة، البحر يطلق صياحه بين الدروب عن الغزالة والضب، وجزع حن، وحمامة شكت للحبيب، وبنت بر والبدوى، والمرأة النكدية، وطلاسم الحروف، والكلمات الأعجمية، ودب الحجر على الصدر المفتوح، نداءات يطرب لها الرجال، وتسرع لها أقدام العيال، حيث الحمير والوشم والأخراج ووجوه الحلب المدفونة تحت اسوداد الطرح، كم من العيال ضاعوا؟

قلت لى إن أعمامك كانوا سبعة، أكل البحر منهم ثلاثة، وضاع واحد فى موسم الحصاد، كان يعشق الدف والسامر وأغانى الحصاد، ويرقص بالعصا فى خفة مدهشة، كان جميلاً أقرن الحاجبين، حين أتاه الصوت انفلت كحمامة، تحرث قدماه تراب الشوارع، ووقف جوارهم، كان يسمع ويرقص على وقع دف الجعيدى.

أفسحوا له حلقة، هم الملتفون بالعباءات والأسرار، حلقة تضيق، ودف يعلو، وجعيدى يبعثر نظراته من فوق الجميع، وأياد تدهن

الوجه البرىء بالزيت العطن، خرج يفتح وحمير تساق على عجل، قال الواقفون لأمه.. ابنك كان هنا، يرقص فوق حواف الضوء ونواصى القلوب، كان يتقافز كطائر ويحط فوق الأكف المفرودة.

قدماها المتعبتان تجوبان الشوارع، والأصابع تشير «كانوا هنا» لكن لا شىء مكانهم سوى روث الحمير، وقطعة من ثوب الود، وجمل البوص الذى كان يركبه.

غاب.. فما أخبرت عنه ضاربات الودع، ولاصائدو الأسماك.

ولا من يمشون هناك على الجسر المتلوى الذى يعلو كل يوم فى تحد أمام النهر.

وكل عام تخرج الأم إلى هذا المكان، تهيل شعرها أمام العابرين وتنادى على ابنها بصوت حزين:

«لو تقوللى أنت فين يا ضناى، حى أجيلك ولا ميت أدفنك بايدى».

وما للقوم حيلة سوى أن يأخذوها.. حيث حصير الظل.. والشمس تودع هامات النخيل، كمادات الماء، وكاسات الهواء، وعشرات الأيدى الحنونة تكبل ثورة الجسد الهائج، ونسوة يهمسن فى الجسد المسجى:

«يا اختى وديعة عند ربنا، البركة فى الباقيين».

فيحتمى من بقى بحجرها المصعص وحضنها الهزيل.

***

النسوة بعد ذهاب اللجة يلملمن بقايا أشيائهن المعلقة فى أعالى

النخيل، ويبدين زينتهن. وينتظرن فتات يلقى عليهن من البيت الوسيع، هن الجالسات على حصير الشمس يعرضن رؤوسهن للوهج اللذيذ، فمازالت الأفران المتهدمة فى حاجة إلى إعادة بناء، والأيدى تبدر حبات القمح فى أرض خلعت ثوب الماء، وموسم الحصاد بعيد، كم يحمل النخل من سباط هذا العام؟ وطالع النخل مات تحت هدير الموج، وكم سبت سيأتى على رأس ملفوف بالشوق. حيث أبناء العمومة سيأتون من البلاد البعيدة، فوق المراكب والحمير والجمال.

العيون ترمق الطرق البعيدة، والذكريات المؤلمة تتداعى، حيث الأزمنة الفائتة، ساعة أن تركوا مواطنهم وفروا فى أنصاف الليالى، تلاحقهم عشرات الكرابيج والبارود، فيجرون قدر اتساع الخطى، يتخبطون فى لجج الظلام، يلملموا الأشياء على عجل وينطلقون فى رماد الظلام وبطون المراكب بين سيل وثأر، وتلفت عسس وأولاد ليل ومطاريد، وجنود احتلال يسوقون الرجال جهة الحفر ليشقوا قناة السويس، حيث بطون تتمزق، وحمى تتفشى، وسياط تنزل بحجم الغضب، وناس يخرجون من بيوتهم ولا يعودون، وأراض ضاقت بأهلها.

البلاد تزفر المتعبين فى حضن الخلاء، الأيدى تودع، والأفواه توصى من بقى بالحفاظ على الميراث، وفروا بجرى الطريد تاركين الأرض والبهائم وما ثقل حمله.

وحين التهمهم مارد الظلام، وحال بينهم الموج، وغابت ركائبهم

والمراكب حتى بدوا نقطًا بعيدة.. عاد الأقارب مسرعين وداسوا على باقى الميراث والبيوت والأرض.

فقط أسباب تأتى بعد كارثة، شىء من خبز محروق، وملابس متمزقة، وبيض معظمه فاسد، وقليل من قمح ما زال فى سنبله، ونقود لا تروى ظمأ أو تطفئ نارًا، معهم زكائب الأخبار التى تقول إن العودة للديار عادت مستحيلة، وإن أسماء الفارين سطرت على الجدران، وإن الجنود وأصحاب الثأر واقفون على كل عتبة، وإن قناة السويس لاتزال فاتحة بطنها فى انتظار المزيد من الجثث، كانوا يحيكون الأوهام والأكاذيب والترهيب، فالمسافة طويلة ومن ساعة أن خرجوا من هناك وهم يجدلون الأحاديث ويتداولون المعانى ويدبرون الحيل كى يفوزوا بباقى الميراث ويقطعوا تلك الشرايين التى تربط هؤلاء الفارين بتلك الأرض، معهم العقود مكتوبة وجاهزة للبصمات، الأيدى تتلاقى والعيون تتأمل الأصابع الهزيلة التى سيكون لها الكلمة الأخيرة بعد لحظات، الحصير يمتلئ والأجساد تتلاصق، والعيون تتلهف، والأوراق تبسط، وفحيح الأنفاس المتعجلة يتعالى، وهباب لمبة الجاز يصبغ الأصابع بالسواد، تلك الأصابع التى ستمحو بصماتها آخر عهد لها بالأراضى والميراث، والبيوت التى شهدت مسقط الرؤوس وألعاب الصبا، والهدهدة على الحجور، والتشبث بخيوط الشمس الداخلة من فتحات الأبواب، حيث الحصر المفرودة، وسرب القمح، والحديث عن الأعراف والأنساب، ودكات الأرجل فى بهجة الأفراح،

ورقصات الخيل، وهوادج الجمال، وزروع حد الشوف، والمداراة على أجران الغلة، ولفة الولد الذكر فى رقيق القماش والحضن المباغت خوفًا من العيون الحاسدة، ليالى الزفاف وهزهزات أبواب المقاعد، ودب الباب بيد عجولة:

«شالك يا ولد شالك.. كان فاضى وانشبك»(١).

واكتشاف الجسد البكر لأول مرة، وحيرة الذكر الصب، ولف التحويطة حول الوسط، والمعارك الدائرة فى عتمة الليل، والتستر على الفضائح، وطاقة الجار، وبتاوات ساعة الجدب، وميل الأجساد بالجرار بين الشوارع، رقيق المواويل وانسدال العيون، والشهقة والفجأة، وتشييع الجنائز، والضحك المتواصل على أبسط الأمور، والتصاق الأجساد تحت الألحفة ووحوحات البرد، والفزع ساعات المصائب، واتحاد الأبدان والأذرع والقلوب لإنقاذ بهائم تغرق، إن الذكريات تتداعى، والأصابع تبصم، والمسافات تبتعد، وخيوط الدم والود نسيج يتهلهل فى الضوء الباهت.

الوجوه التى دخلت بالأسبات واتساع البسمة وضمة الحضن والدموع المنهمرة، تتغير الآن لتصبح بلا ملامح، فما عادت تلك الملامح الحنونة التى ودعتهم ساعات الرحيل وانطلاق الأرجل الخائفة لأبعد النقاط.

لقد بدأت الرؤى تتكشف الآن واضحة، وهم يغربلون الأحداث فى مناخل الذاكرة، يتساءلون فى سكون مطبق وعيون تائهة، كيف كان يحدد الجنود أماكنهم؟ من دل أصحاب الثأر على الرجال المختبئين بين

زرائب المواشى وبيوت الأفران وتلافيف الهيش وقصب العفريت؟

لم يكونوا مصدقين أن أبناء عمومتهم كانوا يقبضون ثمن ذلك، وترتفع بيوتهم، ولا يسحبون مثلهم فى ذيول الخيل إلى حفر القناة، ولا تصيبهم سكاكين أصحاب الثأر، رغم أنهم نفس الأهلية والدم. الأصابع تضغط على الورق المصفر فى يأس وحسرة، وتأكيد حين تتواجه الأعين.. إن السيل كان أرحم، والارتماء فى حضن الهلاك والغربة والمصير المجهول، أكثر دفئًا وأمانًا.

نعم.. هذا هو العام الأخير، والأصابع تطبع البصمات على بيع باقى المواريث، حيث ستغيب الأسبات بلا رجعة، وينطفئ بريق الوجوه القادمة من البلاد البعيدة، فما عاد شىء يستدعى مجيئهم، حين انتهوا من أخذ البصمات وطى العقود فى جيوب الصدارى، انهمرت العصى على رقاب الجمال والحمير المستسلمة، ونطت الأجساد بحرقة فوق الركائب، قالوا بتعال:

– فرغتم الأسبات؟

وانطلقوا يهيلون العفار فى وجوه الملتفين، تغيب ظهورهم فى رحم الخلاء، يسرعون الخطى وتتقارب رؤوسهم وهم يقسمون:

– والله لن نأتى ولو قتلوا جميعًا.

هكذا يدور الحوار بينهم وهم يقلبون أوراقًا صفراء مطبوعة بوشم البيع، ويسرعون لاحتضان أراض أصبحت لهم.

***

والنسوة على حالهن، تتلاقى رؤوسهن كقبة، الحديث لم يتطرق

إلى زواج أو فرح أو سامر.

فمازالت خزائن (الجابرى) مغلقة على حصاد العام، والدكان يرفض بيع أقماع السكر والصابون الأسود إلا برهن الخلاخيل والكرادين، وبصات البقال بعينين بارزتين فى فتحات العب ونبق الصدور واستدارة السرة وتهدلات البطون الجوعى، ربما تركن يده ترتفع فى ربوع الجسد، من أجل قمع سكر ورطل زيت، ولقيمات لا يشبعن جوع العيال الذين يأكلون الأسماك نيئة ويقرشون الذرة المحمصة.

النسوة عارفات ومحملقات فى البناية الوسيعة أعلى البلد، تلك الحجرات والمقاعد وألواح الخشب والعروق وأجولة الجص والأبواب التى هدت أكتاف الرجال، وحملوها عبر المراكب، وصنعوا قوالب الطوب اللبن، شهور طويلة حتى استقام هذا البناء، وارتفع أمام الريح والموج وجريد النخيل، ووقف الجابرى فوقه يلامس بكرباجه قطع الغمام ويهوى على الظهور المستسلمة للألم اللذيذ، حيث يحفر على الأجساد حروفًا متشابكة يستدل بها على أسمائهم.

والنسوة عارفات، ولا أحد يعرف غيرهن أن تلك البناية الداخل فيها مفقود، حجرات تبدو أكثر رهبة، وأرجل تتحسس بحذر نعومة السجاد، ورسومات على الجدران لطيور وغزلان.

شوارب تفتل، وأياد تدفع، وباب يغلق، وجسد يتعرى كوحش ويتضخم مخيفًا فى الظلام الباهت، يدك الجسد حتى يهمد مستسلمًا لأيد تزحف حتى النهايات.

كم مرة تدحرجت أجسادهن على الأرضية الخشبية، ونزلت

فوقهن الشوارب بفيض العافية، يسحقون الكرامة حتى نهايتها، شعور تجر، وأفواه تكمم، وصيحات تموت تحت البطون المترهلة. هل يعرف الأزواج ذلك؟ ومن يدرى، فقد قل عتابهم، وانخفضت أصواتهم، ولاكوا خبزًا طريًا، وبقايا أوراك وأجنحة ممصوصة، واستسلموا لنوم طويل.

إنها الأحداث التى تتداعى جلية ودافقة إلى صدور النسوة وخزائن الأسرار المغلقة بآلاف الأقفال.

منذ متى والنسوة لم يجلسن هكذا، يعدلن من طرحهن وحناجرهن التى بحت من الندب على الراحلين، والدعاء للناجين من الطاعون وجبال الموج وجحيم (اللجة)[٢].

«اللجة ياخلق هووه».

هكذا يعلنها صوت من كان مستيقظًا فى الليل، وسمع هدير الموج وتهشم الأشجار، وهياج البهائم خالعة أوتادها، واندفاع الطيور متخبطة فى الفروع والحوائط، وزحف النهر يشق رماد الظلام، وتطاير الرذاذ المملح وعبق الطمى وزبد الموج، فتوقف هذا الرجل متسمرًا فى جدار الدهشة، كان قد نسى أنه ما أخرجه إلا ميعاد الغجرية هناك فى خصها البعيد، فطوح زجاجة الخمر فى عمق الظلام، وتسلق أقرب نخلة، وصاح بكل كيانه:

– اللجة يا خلق هووه.

اللجة جاءت ليلاً، غمرت أنصاف البيوت، وحملت العشش، وسحبت معها المعيز والحمير والبهائم إلى حيث تغيب،، رؤوس

كائنات تشق الموج بصعوبة وجزوع النخيل غائرة فى الماء، المساطب وحفر السيجة ورسومات العيال وأحصنة الطين وعرائس الخبز غابت تحت الهدير، وتشبثت الأيدى والأرجل بالأشجار،، نسوة يحملن العيال ويتقافزن بخفة النسانيس بين الفروع، ورجال تعرت مؤخراتهم وتكشفت العورات فاضحة أمام عيون لا وقت لها للتأمل، و(الجابرى) يفتل شاربه فى داره الوسيعة، هناك عند أعلى نقطة يتفرج على عبيده وخدمه وهم يقاومون الموت، رؤوس تعلو وتهبط، كائنات تتماوج وأشكال تتداخل. وأجساد تلوذ ببعضها، هدير ضحكاته يتعالى حين تتشبث القطط والكلاب برقاب أصحابها، والأذرع تعافر وتدفع الماء كالمجاديف، رؤوس معيز وحمير وبهائم وطير مستسلم، وأسنان تجز بغيظ على بقايا حياة وانسلاخ روح، ودوار مدو، وخدر يثقل الجسد، وطمى يكبل الأقدام، وحلل فارغة تعوم، وصراخ يرتفع كلما استنشقت الأنوف الهواء الملبد، مواء وزفير وعويل ونباح وفقاعات واستغاثات، شجر يتهاوى وأسطح تعوم، وعيال يغطسون ولا يقبون، وعيون جاحظة ومطفأة من الحياة، وأرواح تنفلت جماعات وفرادى، الموج يضرب وجه الخلاء بكف الغضب، والأزرع المتعبة تطوق خصور النخيل ببقايا حياة ولهفة وفرحة تغمر الروح، وماء يقطر من الأفواه والأنوف ونتف الثياب وحبال الضفائر، يلوذون بأعالى الأشجار الصامدة، يتشبثون بالأدعية والأوراد والأحزاب، ينادون بعضًا من الأعالى، إجابات خافتة ومتداخلة وبعيدة، البعض استطاع أن يعلو شجرة

المانجو فى جنينة مرعى والآخر فوق نخلات فوزى.

كم بقى وكم غاص؟ هذه مؤخرة امرأة أم سباطة تتطوح (والجابرى) يستلقى ضاحكًا على كتف العبيد، ويلقى بقايا سيجارته فى ماء يصطك بجدران المبانى.

النهر يتقهقر الآن مدفوعًا بالزغاريد، ساحبًا معه بقايا الذكريات وأجساد الأحبة وخزين البيوت والبهائم ولعب العيال، تاركًا سحابة من حزن تكسو الوجوه، وأيدى ميتة تتشبث بطمى لزج، وشفاه مغلقة على بقايا حكايات ووصايا وذكريات مهشمة، والشوارع لابدة فى عباءة الصمت، وكتل الطمى تكسو رسومات العيال، ورمت الأمواج أصدافها والمحار فى الأيدى الصغيرة، صباح سيكتشفه الآن هو النازل من مملكته يتسند على أكتاف العبيد وزغاريد الخدم وانحناءات الأجساد، وهدير البهائم والخيول فى إصطبله القريب.

نازل حيث جاءته الأرض راغمة، وأحنى النهر رأسه وقبل عتبات بيته ووهبه الفرح والأرض والأسماك، وأخذ معه بسمات الوجوه ودفء الحضن وعرائس الخبز وخزين الشتاء عافية الرجال، والأطفال الذين لم تستطع الأيدى حملهم فوق النخيل، فاتحًا أمامه وسع الدروب، ونسوة يدارين عريهن بأيد ترتعد.

وعوز يحنى رقاب الرجال، فيلهثون خلف الحصان، يستحيلون كائنات خرافية وهياكل عظمية منحنية بلا ذيول، وأفواه تتشمم قدم الجابرى، فيعلو كمارد بين النخيل، كرباجه يلفح وجه الخلاء

ويحفر فوق الظهور حروف التواجد، كان يكتب اسمه على لحم العذارى وأكتاف الرجال والظهور المنحنية.

وكل عام يتكرر نفس السؤال، ربما ترحل الأجساد والملامح وحوائط الطين، ويجرف البحر العجائز بذكرياتهم وحكمهم والمواويل ويبقى السؤال:

كم سيضيف ذلك المارق بحصانه فوق وجع الضلوع وألم العيون وغز الجوع بخناجر فى بطون معصوبة بحبال الليف، إنه يرمح بلا هوادة فوق مفارش الشمس وعيون الصبية، ومدارة النسوة لخجلهن تحت الطرح، يطوف على أرض لا نهاية لأطرافها، ويلسع بكرباجه الظهور المنحنية تعزق الأرض كطيور القردان، تتعالى الصرخات وهرشات الظهور، وهرولة الأرجل خلف النوارج وبين أرجل البهائم والجمال والإصطبلات والشوانى، والنسوة هناك فى حظائر الدار يملن ويبدرن القمح للطيور، وقطعان الخراف، وأفران تشعل نارها، مطارح وبتاو وسمن سائح على الذقون، حلل العصيدة والمكمورة والشركسية والفتة فى انتظار ضيوف تأتى إلى هذا البيت، حيث التنزه، ومؤخرات النسوة، والخمر والسهر حتى الصباح. والنسوة الجالسات على حالهن، يفككن الضفائر ويرسلن شعورهن بين النخيل، وتتبع أصابعهن أسراب القمل، فيطرقعون بين الأظافر ويتأملن نهاراً تضرب شمسه برك الطمى العفنة ورؤوس الأشجار والمصاطب الفارغة، وأوانى النحاس والفخار والأفران المتهدمة، وتستقر نظرتهن عند حصان يكبو هناك فى وسع المدى، ويعاودون

السؤال: كم سيضيف من الأفدنة بعد ذهاب اللجة، ورحيل الخواجات والأغوات بعيالهم فى سفن ترحل إلى بلاد بعيدة، يسرعون قدر الحيلة أمام أحصنة قادمة وعصى ترتفع، وشوارب تثقب القرب، ونهر لازال يضرب بأمواجه واجهات المشربيات، وأعمدة الرخام، ويمحو رسومات الجدران وملامح المكان والصور المعلقة، ويقذف الرذاذ فوق الأسرة، إنه نذير شؤم، كل عام.. بل كل لحظة يبدو المكان موحشاً، حيث يجىء الجمسة يحاصرون بيوت الأتراك، يقزقزون الأرض وينصبون الخيام ويتركون الجاموس يرعى، فر الخواجات والأتراك حتى لا تطولهم تلك الأيادى والمخالب ونظار الأرض والخفراء والخدم وأولاد الليل، وجحافل الذين يأتون الآن خلف الجابرى، مساقين بعصى وهمية وألم جوع، يقتحمون تلك البيوت، فلازال الأكل دافئاً، أطباق من الحلوى والنبيذ، السجاد العجمى وأطقم الأرابيسك، باروكات وأسرة مذهبة، تحف وتماثيل، أجولة دقيق وأسلحة خالية من البارود، نوافذ تبص على النهر، لوحات ورسومات ومشغولات يدوية من المفارش والمراوح وسعف النخيل وكور الصوف وجنيهات ذهبية، وعملات انتهى زمانها، وأخرى لا تصرف إلا فى بلادها.

والجابرى قد ارتمى على السرير، يتأمل الأعمدة الذهبية ذات التيجان والناموسية الرقيقة، وخصل الشعر الصفراء على الوسائد طويلة وناعمة، يتشمم العطر ودفء المكان الذى هربوا منه لتوهم، ويطلق صيحة تعم الكون، وينطلق إلى أماكن أخرى.

هذا الحصان يرمح وسع الخطى، واندلاع السيل، واندفاع الريح، فاتحًا منخاريه للهواء الرطب، خدم ورجال يلهثون، وحديد يدق تحديداً للملكية، والحصان لا يتوقف، قالوا ورثه عن جده الكبير، ترك مقابله عشرات الأفدنة والبهائم وأخذه، كان أبوه يردفه خلفه ساعة العصارى، وينطلق به حيث مديرية المنيا وموردة الحنش، وبنخسة واحدة يقفز فوق ترعة الصفصافية أمام دهشة العيون الباصة هناك من فندق سافواى، حين ينخسه الآن، كان له ألف جناح، ينطلق كطائر أسطورى وجواد مجنح، يوشك أن يخترق وهج الغروب الأحمر، هو الآن عائد، كرباج يطرقع، وحصان يرمح، وعفار يتعالى، وظلام يفرد ملاءته على الكائنات.

صهيل يقترب، ونسوة لازلن على حالهن يقزقزن الحكايات، ويلمحن أزواجهن يرمحون وراء (الجابرى) بلهاثهم وتعب النهار، أجساد مهدلة وغنيمة ما أثقلها تحملها الرؤوس والأكتاف لتختفى هناك فى البيت الوسيع.

الأولاد العائدون من لعب النهار، والبحث عن ثمار عطنة يعودون بحجور ممتلئة بالأسماك النيئة، فتشتعل المواقد حد الأغام والأفواه الجوعى تأكل النيئ قبل المشوى، وتنتظر صباحًا متشابهًا.

(١) من التراث الشعبى.

(٢) اللجة: اسم يطلق على فيضان النيل قبل بناء السد العالى (صعيد مصر).

-٢-

حديث الصوامع الفارغة

«ثورة القطط المحنطة»

إلى متى تظل صامتًا هكذا، والشمس توشك أن تسقط فى حجر المغيب، والنخيل يلقى بظلاله على صفحة الماء، ومارد الظلام يوشك أن يخرج فجأة فينطلق عواء الذئاب هناك فى (كوم الديبة) بين أشجار السنط والحلفاء ورفات الموتى وطنين الذباب الأخضر.

على البعد بيوت الكوم الأحمر، وتلال الرمال تبدو كقباب مبعثرة فوق مقابر الأقدمين.

تقول إن أنفك تتشمم مواضع المقابر، وإن القطط المحنطة مازالت رائحتها فى ذاكرتك، وإنك رفضت أن تذهب مع من جاءوا ليأخذوا أنفارًا للحفر فى الصحراء الغربية، بحثًا عن الذهب والحنوط والكتب والتمائم والمومياوات.

كنت تعلم أنهم لن يجدوا شيئًا، رغم طلاسم الخرائط التى

معهم، وعدد الخطوات التى يحددها لهم المغاربة، والعيال الذين يخدرونهم ويخبئونهم فى أجولة على ظهور الجمال، ورغم عميق خبرتهم وعثورهم أحياناً عن طريق الصدفة على جرار مهشمة ورؤوس وأجساد محنطة ومقابر عرتها الريح، مع أن ذلك نادرا ما يحدث، وكثيراً ما يتعرضون لسطو البدو الذين يتعقبون الأثر ووقع أقدام الغرباء وفض بكارة الصحراء بأحذية غريبة وسيارات وجمال وأقدام مسرعة وأعقاب سجائر فاخرة وزجاجات فارغة وآثار دم ورؤوس مجزوزة..

وفى النهاية لا شىء سوى مقابر منبوشة من عشرات السنين، وبنادق مصوبة ووجوه ملثمة واستلاب لما بقى مع الركب من مال وطعام وعيال وخمر..

فإنك تستطيع أن تحدد مكان المقبرة من مسافات، شىء ما يجذبك نحوها، وخدر يحتويك ورائحة عتيقة، شىء له رائحة توابل السبوع الممثلة «قرنفل وشيح وزيت خروع معتق من آلاف السنين».

ورفضت أن تذهب معهم، وضحكوا عليك وأنت تخرج من بيتك كطائر عجوز، تطوح ذراعيك وتشرع إصبعك فى وجوههم، وتتبدى مهيباً وحازماً ومتجهم الملامح وأنت تعلنها فى وجوههم:

– آكلها بملح ولا الموضوع ده.

وهالت سيارتهم العفار فى وجهك، وعلت قهقهاتهم، واستلقى كبيرهم على المقعد الخلفى ورماك بنظرة عميقة من وراء نظارته السوداء، كان الليل يفرش ملاءة الظلام على واجهة المدى، وجمل

النوم برك عليك بصدر مكتنز، والكف على الباب مرتعدة وعجولة.

وأخذك الرجل ومضى بك خارج البلد، كانوا فى انتظارك، يتلفتون فى ريبة ويرسلون عيون أتباعهم إلى أبعد نقطة ممكنة، كنت تشعر أنهم يدفعونك أمامهم، بل يحملونك بين أيديهم فى لهفة وصوت خشن وآمر ورغبة ورجاء ورهبة، وأنت تمضى بنعلك القديم وكتفيك العريضين حتى أوقفوك أمامه، وأضاء المصباح الداخلى للسيارة وفتح الباب وقال «اجلس» وجلست وكان الكرسى دافئاً والسيارة غارقة فى رائحة الحشيش، وسألك:

– تعرف ايه عن المقابر؟

أنت لم تجب، وتركت عينيك تجولان لحظات فى الوجه الممتلئ والعينين المدفونتين تحت النظارة السوداء وفمه الذى يهمس بابتسامة:

– لا تخف.. ستأخذ مثلنا.

ومد يده بسيجارة محشوة وأشعلها وقال لك «دخن»، صراحة أنك عندما سحبت أول نفس وتوهجت مقدمة السيجارة وأضاءت للحظات حقيبة مفتوحة على رزم نقود مرصوصة، ظننت أن الأمر بفعل السيجارة، فأنت لم تدخن شيئاً بهذا الشكل من قبل، حكوا لك عنه وعن الانبساط والتوهة والضحك المتواصل وفجأة الفرحة والصقيع الذى يخدر الجسد، ولم تكن تظن أن الأمر بهذه السرعة، ومن نفس واحد يحدث لك هذا، حقيبة نقود ممتلئة عن آخرها

ومفتوحة أمامك، والرجل بجوارك اقترب منك ورأيت طبقات اللحم تحت ذقنه تترجرج، قال لك..

- شاور على المقابر وملكش دعوه.

وأنت سعلت وعطست وألقيت السيجارة وكدت تقفز فى لحظة من الزجاج المغلق، فجذبتك يده

- قالوا لى إنك عنيد.

حتى الآن لم تتحدث أو يسمع صوتك ولم يعرف رأيك.

يفتش ذهنك بين ثنايا النخيل والزروع ورفقاء الغيط والصيد وزوار الليل وصاحبات زوجتك وأهل المكان عن الذى دلَّ عليك وعرف الأغراب بك، ونسج عنك تلك الحكاية والكاذيب، وقولك ما لم تقل أو تعمل، كم من الأسماء تتداعى إلى ذهنك، توشك أن تقصر ذاكرتك وفطنتك وتدخل يدك فى جحور الغيب وتستخرج ذلك الثعبان الذى ينفخ سمه فى نقائك، الآن تعلم من أخبرهم عنك.. ابن عمك الذى يعمل مدرساً بالحصة وينتظر العقد المميز، ولديه كتب قديمة يربط بها العرائس، ويمسك محمولاً لم يتصل به أحد حتى عن طريق الصدفة ويدخن بشراهة، وينفق كثيراً على ملابسه ويغسل شعره بالشامبو، ويسهر أمام الأوروبى حتى الصباح، ويصاحب ناساً يحفرون فى البيوت بحثاً عن كنز وزجاجة وكتاب، كل مرة لا يجدون شيئاً، رغم أنهم يأخذون المصاغ والنقود ويمنون صاحب البيت بالطيور الذهبية والأطباق والدنانير والمساخيط الفضية، وفى النهاية يهربون تاركين فى البيوت حفراً

وأيادى تلطم الخدود وتهيل التراب على الرؤوس وتدارى خيبتها وراء الأبواب المغلقة.

وابن عمك يحلف أنه لا يعرف عن الأغراب شيئاً.

لماذا اجتنبته وكرهت سيرته ورفضت الجلباب الذى قدمه لك وقال: «النبى قبل الهدية».

فضربت به وجهه ودفعته بعنف وقلت:

«مش لما تكون حلال»

هو الآن قد وقف بعيداً ملفوفاً فى عباءة الظلام، وقد أرسل من أتى بك ورأيته يقترب من زجاج السيارة، ويفتح الباب ويجلس على الكرسى الأمامى، يرمى بجسده كله للخلف ويلفحك بنفس ساخن وعينين جاحظتين ويهمس:

- يا ابن عمى دلنا أنا عارف إن جدك قالك على كل حاجة.

تود أن تبصق فى وجهه، وتوشك أن تبكى حسرة على كل ما يحدث، ما للمواويل تتداعى الآن إليك، وأنت الذى لا تريد أن تتحدث أصلاً، تلك التى تنهمر عليك ساعات الحزن وفراق الأحبة وقلة الحيلة، إن فمك ينفتح، ولسانك يرتعش والكلمات تتردد فى حلقك، تلك الكلمات التى تريد أن تفجرها الآن فى وجهه، تقول له: لو كنت تعلمت مثلك، لو كنت وجدت من ينفق على، آاهـ لولا الفقر، ولولا أن أبى أخرجنى من المدرسة كى أجمع معه ثمار الحديقة التى أخذها منا ورثة (نصرى) فى قانون المالك والمستأجر، والتى ما نالنا منها سوى القيراط الذى اشتريناه كالغرباء، بعنا من

أجله الجاموسة والعنزتين وكردان أمى.

وأنت. أهكذا علموك فى المدارس والجامعات؟ أبوك باع الفجل وتحجرت رئتاه من العمل فى المحاجر من أجل أن يوفر لك ثمن المواصلات والمذكرات والكريم والجل والنظارات السوداء، أنا أكره أن يذكر الجالسون اسمك فى بيتى، وأتناوم عندما تجىء لتسهر مع الناس عندى، وأكره نفسى عندما أقابلك فى شارع من الشوارع، أنت الوحيد بيننا الذى تتباهى بأنك ليس لك إصبع منتصب، يدك رخوة وطرية وناعمة، تروى للناس حكايات عن عائلتنا لا أدرى كيف تختلقها، قلت مرة إن جدنا كان بائسًا وإن الثورة أخذت أرضنا والأيام قست علينا وهذا لم يحدث، فجدك ابن عم جدى جاء معه على المركب واحتمى به، وحين رفض جدى أن يكون حارسًا للجابرى وعرف جدك ذهب على الجابرى وقبل الأعتاب والأقدام وقال له:

- سيبك من ابن عمى ده مش وش نعمة، أنا أحرسك ببطنى، آكل وأشرب بس.

ولكن الجابرى لم يقبل. بل بصق فى وجهه وقال له:

- احرس نفسك أولاً.

وارتضى أن يكون رجل دكة، ينقل له الأخبار ويسامره ويقرض له السير القديمة منسية ومهشمة وباهتة الملامح.

وجدى عندما علم، غرس إصبعه فى خده وفرج عليه الناس وحلف «طلاق تلاتة لا تجاورنى فى غيط ولا بيت».

وحين مات رأوا آثار الدم فى قيئه، قالوا مات مسمومًا بدم الحيض عند إحداهن، وقالوا غضب عليه الجابرى فقتله وقالوا «الحجر الدائر لا بد من لطِّه».

وكتم جدى ألمًا فى صدره وقال سقطت عليه نخلة فى الليل، وبلع الموضوع كله فى جوفه خشية الفضيحة والذل والعار.

خراف الأفكار ترعى فى ربوع ذاكرتك، وينابيع الدمع تتفجر فى صحارى العيون، وهو يقترب بوجهه الممسوح، يأخذ سيجارة من الرجل وينفث دخانها فى تلذذ، يدنو منك ويغمز بعينيه ويقول:

- بلاش دى.. طب والقطط المحنطة اللى عندك؟

أول مرة تنظر فى وجهه عن قرب هكذا، وتندهش لهذه الملامح التى لم ترها من قبل، عينان غائرتان وانف مفلطح ووجه ممسوح من الطيبة، تهمس فى نفسك: ملعون بن ملعون، هو الذى يشيع تلك الفكرة عند الناس أن لدى قططا محنطة لو خاطتها العاقر تنجب ولو وضعت فى بيت لامتلأ غلالاً ومالا ونسلا.

نفس الكلام القديم الذى أشاعه جده عن جدى، من أين لنا بالقطط المحنطة وقد غمر السيل أشياءنا وأجسادنا وأخذ صناديقنا وألعابنا وجرفها إلى بلاد أخرى.

كنت تود لو تستحيل أسدا تأكل وجهه القبيح هذا، كان يتبدى أمام عينيك عاريا ومشينا وكان الرجل بجوارك ينحنى عليك بجسده وحقيبته وسجائره، يحنو عليك بدفئه ورائحة البارفان ويدغدغ جنبك:

– آه يا بطل فين القطط ؟

فانطلق إصبعك المنتصب يحاصر الوجوه والعيون والنظارات، كانوا يرونك قطًا وحشيًا بحجم الكون تنحنى فوق الكائنات وتمزق بمخالبك جسد الليل والأبدان الفارة فى رماد الظلام، اختباء وخمش بمخالب حادة، سيلان دم وتخبط وعفار ملبد، وأنت تتعافر بين النخيل والأشجار والنظارات وأفواه المسدسات، كانوا يختبئون بين الزروع ويرتعشون كالقطط الوليدة، وهم يرونك قطًا خرافيًا متفلتًا من عالم الأساطير، كم أخذت من السنين وأنت تزيل قشرة الصخر اللابدة على وجه الأرض، منذ متى تحفر وتسمع وتستعد لتنطلق، من عرف الكائنات بك، كل يلوذ بجحره خائفًا، حتى البومة القابعة فى تلك الدار منذ عشرات السنين تدارى عيالها وتبص بعينى عجوز وتتخلص من بقايا فأر كان بين مخالبها وتتنفس على مهل وفى حذر.

شق الظلام، هلهل نسيج الخلاء، اغرس مخالبك فى أمم الرؤوس، أسمع الكائنات صياح الألم الخارج من عمق الروح وخمش المخالب وسريان الوجع فى ثنايا العظام، سر غمامة فوق النخيل والأسطح والبيوت، وتعقب فرارهم اليائس كجراد منتشر، قزقز العيون وتذوق ملوحة الدم، عاند السيل والريح وامض إلى وجهتك حيث رقابهم، تلك المختبئة بين أربطة الأعماق ولمع النياشين، كنت تحدد مكانهم فينطلق الصراخ من كل الجهات، إصبعك ينمو كالنخيل ويتعقب الأرجل الفارة وهم عند أبعد نقطة يلملمون أنفاسه

ويعدِّلون ثيابهم، وتنطلق سياراتهم هاربة فى عمق الظلام، وأنت تتعقب ابن عمك، كنت تتشمم رائحته فتنطلق خلفه، تغز إصبعك فى عمق روحه، وهو ينكفئ ويعتدل ويجرى حتى اختفى بين الدروب.

فى الصباح كنت تراه يقابلك عند كل ناصية وشارع، يغرس عينيه الضيقتين فى رحم البيوت، ويعبث بأصابعه الرخوة فى أزرار المحمول.

« عروس من قطن اللحاف »

ومازالت عيناك الحكيمتان تبحثان عن شيء ما، ربما يمرق فوق نمنمات الموج أو قصب العفريت أو رنات مواعين النسوة على الموارد، أو طائر يروح ويجيء هكذا بين الشاطئين مغيظًا أمام تحركات عينيك وصمتك الأبدى.

فترى الأشياء تمضى ومعها ألعاب الصبا وأحجيات الرفاق ورقيق الكلام والصفير والحجلة والاستغماية وخطف الطواقى والتلصص المضحك من كوات الجدران العالية، قلت لى إنك وصديقك (كمال) تعاهدتما ألايترك أحدكما الآخر، أقسمتما أمام القمر وقطتين تتمسحان وتلوذان بدفء بعضهما، ونسائم تداعب خد الليل.

قال لك وهو يعدل من طاقيته وصوته المتحشرج ويعاند دمعات

على وشك السقوط.

– أنتم عندك جنينه، طيب وانا وامى واخواتى البنات نآكل منين؟

فملت عليه بدفء السنين وخشية الفراق وغياب آخر إنسان كنت تلوذ به ساعات الضيق والشكوى وتغسل على صدره همك فضممته إلى كيانك، ونزلت دموعك على جلبابه الذى حاك رقاعه بطريقة مدهشة.

كدت تصرخ فيه، تأمره وتستجديه وتستحلفه ألايرحل، وهممت أن تحتويه فاحتواك، وتعانقتما تحت شجرة الصفصاف، وفرغت ملء جيبك بلحًا فى جيبه، ونمت فى حجره ونعست حتى امتلأت الأشجار حولك بالطيور العائدة، شقشقات وأسراب تتهادى وتحط بين أعالى الأشجار، هياج واستقرار وأفرع تهتز والليل قادم على فرسه بعصا النعاس فتحنى الكائنات رؤوسها مستسلمة، وتتجمع الأجساد حول المواقد وحكايات النهار وحجور الفول المسروقة والبطاطا المسلوقة وحين صحوت كان مستيقظا، تلمع عيناه فى رماد الظلام، يتنصت إلى أصوات خافتة يردد موالا قديمًا، كان طعم الدمع فى فمك مالحًا، واقتربت من وجهه وقلت له:

– أطعمك لحم اكتافى.

فأطبقت أصابعه على كتفيك الهزيلين وعظامك الرقيقة وقال ضاحكًا:

– هى فين اكتافك دى؟

وتعالت قهقهاتكما وأنتما تدغدغان بعضكما أمام القمر النابت وأوراق الصفصاف وقروش الفضة اللامعة على وجه التراب.

وما ارتضى ذلك، قال سأسافر إلى مصر وأعمل فى المعمار وأعود إلى أخوتى وأمى التى بين الموت والحياة، وكنت تشفق عليه.. هو الذى ما غادر المكان ولا غادرك ولا ذاق طعم الغربة ولا ذقت البعد عنه.

ومضى غائصًا فى بحر الظلام يدور مع الشوارع إلى حيث بيته، فى الصباح جاءك وطرق بابكم المليء بحكاياتك، ونادى عليك بصفيره المعتاد، وكنت نائمًا فترك على بابك مسجدًا صغيرًا صنعه بالليل من سعف النخيل، بات ساهرًا يحاذر النظر إلى جسد أمه وهو يرتفع وينخفض ويئن من الألم الشديد، كان البطن يعلو بشكل مخيف، ويبدو كقبة، وهى بين صحو ونوم وتقلبات وأنين تنفلت منها الآهات:

– سكاكين فى بطنى.

ثم تتلفت خشية أن يكون قد سمع، وتكتم أنينها وحشرجة الصدر وأنفاسها اللاهثة.

واخواته البنات يتجاذبن أطراف اللحاف، يتأففن من شدة البرد، كان قد ترك لهن نصيبه من الغطاء واكتفى بأن يدارى قدميه، حيث القماش المصبوغ ببقع الزيت خاليًا من القطن والرؤوس نائمة على حبال الضفائر، والأفواه تتصيد الأنفاس ثم تزفرها دفعة واحدة حمائم كلمات وألعاب نهار وأغنيات ممطوطة، بسمات وأنين

وشخير وتقلبات وتتبع براغيث لسعت رقيق الجلد وسرحت بين ثنايا الحلم، وأرجل مصبوغة بحناء قديمة تحتمى بدفء الغطاء، تنكمش وتفرد وتخرج من مزق اللحاف، أجسادهن المترنحة أنهكها عمل النهار والجرى وراء أبى قردان ولعبة الحجلة والقفز فوق القنوات ولملمة سنابل القمح المنسية فى الغيطان وتنقية زروع الناس من الحشائش الغريبة.

والبنت الصغيرة تنحشر بين إخوتها، تحتضن عروستها التى صنعتها من قطن اللحاف وعلمتها الزغاريد والكلام والأسماء وغربلة القمح ولف الرحى وتوسيع البتاو بالمطرحة وشى الذرة وخبز الشمس وعجين الحناء والوشوشة والأغنيات وحكت لها وسط ضحكاتهم ما رأته فى النهار وملأت فمها المسدود بخبز الذرة وقالت:

- كلى خليكى تكبرى.

فأخرجت الأم من وجع الصدر ضحكة متقطعة وقالت:

- الليلة ضحكنا كتير يا ولاد.. استرها يارب.

كانت الأم تتأمله فى فرح ولهفة واتساع صدر وحنو وستر بنات وجلب خير وامتداد عائلة وولد حيلة.

وبين خوف وتشجيع وأمر وتهذيب، تفرش وصاياها وحكم الأقدمين، ترجوه أن يعتنى بنفسه ويبتعد عن أهل السوء ويتغطى جيداً ويحافظ على كل قرش، وملأت البيت بفيض الدعوات وقالت (آمين) وتناومت فى الضوء الشحيح.

الأشياء على الجدران تتحادث فى صمت ولغة مبهمة.

جلباب أمه الكستور الذى يضيق عليها يوماً بعد يوم ومطرقة كانت تسرح بها فى النهار قبل أن يبرك عليها جمل المرض ويدهسها بلا هوادة، تتبع دخان الأفران وألسنة اللهب تطوح الطرحة بين يديها لتفرد قطعة العجين، بتاوة بحجم التعب واتساع الذراعين وانبساط الرضى فى وجه صاحبة الخبيز وضمان العودة آخر النهار ببتاوات لا يقمن الصلب.

جلبابه المغسول وطاقيته المقرنة والمواعين التى خاصمتها النار واللحوم والقطط، بقايا ربابته التى لملمها من أيدى العيال، وسعف نخيل جف كانت أمه تصنع منه أطباقًا وأسباتًا لمن يشترى.

هى الآن غير قادرة على أدنى حركة، كلما قامت وقعت وسط بكاء البنات.

الليل تطول ساعاته، والأشياء من حوله تحدق فيه. وأمه تتابع من بين ثقوب حرامها الأسود حيرة عينيه وانهماكه فى جدل سعف النخيل، كان المؤذن هناك يؤذن لصلاة الفجر، وكان قد أتم المسجد فى يده، فقرر أن يصلى أولاً ثم يذهب إليك ويطرق بابك قبل أن تصافح الشمس وجوه الكائنات. ليترك لك ذلك التذكار.

كانت الصباحات على غير هيئتها وأنت متسلق فوق النخيل، تتأمل الطرقات البعيدة وسيارات تمرق كالأشباح وسارينة قطار تدشدش صمت المدى فى انتظار من يعود محملاً بدفء الحكايا والرؤى وذكريات أيام الغياب، صباحًا تتغير معها الوجوه والملامح

والجلابيب، وأشجار الستان تتساقط أوراقها وتنمو أخرى.

وبين بهجة وانقباض وفيض تمر وقطع أشجار.. أنت على النخلة تنتظر من يعود لتقفز إليه بدفء الحضن ودمع الشوق، وما عاد الغائب سيراً ولا قفزاً ولا ذراعين مفتوحين بوسع الزرع ولا وهج البسمة.

ولكنه عاد محمولاً فى قارب نعش يكبو على موج الأكتاف، يسوق حامليه صوب البلد بسرعة مدهشة.

أكنت تجرى أم تقفز وسط دهشة الناس والذين التفوا حول النعش، قالوا خانته قدماه بالشيكارة فسقط من الدور العاشر، هناك حيث التف الناس حوله ينظرون إلى عينين مفتوحتين على فضاء الدهشة، وفم ماتت فيه البسمة.

كنت تنط فى الطرقات كضفدعة متعبة، وذهبت قبلهم وفتحت القبر وسويت التراب، هنا حيث سيدفن بجوار أبيه، كان أبوه ممدداً كفرعون قديم طفا فوق سطح الأرض، الكفن معفر وباهت ومكسو بالتراب الناعم، والرأس مكور وملفوف فى القماش المهترئ، كنت تخشى أن يقوم فجأة قاعداً حين حط الضوء الداخل على الهيكل المفرود بطول القبر، كنت تحاذر وأنت تتسوى التراب أن تلمسه فيعتدل ويسألك عما حدث لابنه، رائحة القبر عتيقة وطنين الذباب يبدو كجيوش تتعارك، وأنت قد هيأت له مكانًا رطبًا وناعمًا، ومددت ذراعيك على اتساعها لتحمله وتساعد من يلحده، كان خفيفًا وطريًا ودافئًا، وأنت تنتظر أن يفك الرجل رباط الكفن

بسرعة لتنظر فى الوجه الذى انتظرته طويلاً، واحتفظت له فى ركن ما بالبلح المحمص والثمار المجففة وحفان الكشك، وأنت تمنى نفسك أن تضعها فى فمه واحدة واحدة، وذلك حين يفتح فمه على آخره ضاحكاً على إحدى نكاتك، أو انحناء طاقيتك أو مغامراتك مع الطيور والنسور وحنش الجنينة وأسماك البحر.

القبر موحش والجسد يدخل إليك متنقلاً عبر الأيدى ومصمصات الشفاه، ودمع العيون، وأنت تختلس النظر إلى الوجه والشفتين أكان الضوء غير كاف؟ أكان شخصًا آخر؟ نعم هو.. نفس الشعر المجعد والجبهة العريضة وإن كان الشارب النابت قد طال قليلاً، والحسنة مكانها على الخد الأيمن، العينان مغلقتان على رؤى ومشاهد كان سيقصها عليك حين يعود. قال لك سأحكى عن كل شىء أراه.

أتراك لو فتحت عينيه الآن لأبصرك وعرفك، ربما يدعى الموت كما كان يفعل، حين يرتمى على حجرك ويغمض عينيه ويقول:

– أنا مت.

وأنت تصدق فقد كان قاسيًا ومحزنًا حين يفعل ذلك، ويكتم نفسه كما كان يفعل حال غطسه فى بحر يوسف، حين يختفى تحت الماء وأنت تبكى وتصرخ وتوشك أن تطلق قدميك للريح لتخبر أمه بغرقه، ولكن قبل أن يسقط قلبك فى قدميك تسمع تصفيق يديه هناك عند الشاطئ الآخر فترتد الروح إليك وتتدفق دماء البهجة فى وجهك.

وحين كان يفعلها بين يديك وأنت على وشك البكاء، فلا القرص ولا دغدغة الضلوع ولا التحذير بالخصام ولا النكات أو المواويل يجعله يغير من هيئته «العينان مغمضتان والفم مضموم والنفس محبوس فى قفص الصدر» وأنت تجرى هنا وهناك بين الأشجار وتعود إليه بطبيب الثمر، يداك المملوءتان تلوحان من بعيد وأنت تصيح:

– هيييه.. مين يآكل دول؟

فينط فجأة فى وجه الخلاء والطير العابر ويجرى إليك.

أتراك لو فتحت هاتين العينين لوجدت كل شىء مكوشفًا ومسطرًا، كان يحكى لك من وراء الناس هناك فى خص منسى بجوار المصرف، يقول أنا لا أحكى أسرارى إلا لك، ويسمى الأشياء العادية أسرارًا، كل شىء لديه سر، هو من علمك أن تكون كتومًا ولا تستعجل الحكى والكلام، وأن كل شىء له وقته، وميزان الرجل لسانه، ويهز كتفك ويقول «اشترى ما تبعش».

هكذا كان حكيمًا رغم صغر سنه، حتى عندما كانت أمه تدعو له بالزواج، وتمنيه وترتجيه وتذكر أسماء البنات أمامه:

– ندر على يا كمال فرحك أربعين يوم ولا فرح الشاطر حسن أحنيك بكفوفى وأقف على بابك آخد المحرمة بإيدى فيفرد وجهًا مهمومًا كعجوز ويتلفت حوله فى الضوء الباهت واسوداد الحوائط وسقف البوص وإخوته وبطن أمه الذى يزداد تورمًا ويقول «يا أمى صاحب العقل يميز»..

تود لو يمشون الآن بعيدًا ويتركونك معه، لك عنده كلمات

سيقولها وحكايات سيتمها، فقط هم الناس الملتفون حول المقبرة يحولون بينه والفضفضة أمامى.

والرجل وجهه إلى القبلة وحل رباط الكفن ومصمص شفتيه متأثرا لحال الناس.

– يا ستار

قالها للأعين المتطفلة وجلجل صوته فى فضاء المقبرة.

ففهم من يفهم وواصل البعض بصاتهم.

كان الوجه المصفر مدهونا بالدهشة، والأنف غائرة، وشق يبدأ من أعلى الحاجب محيطا بالرأس قد خيط على عجل كمن يلملم فم زكيبة.

والرجل نفض يديه من التراب وخرج وتنحنح المقرئ فى الخارج وجهز الناس فئوسهم ليعيدوا ردم القبر.

وأنت ماذا تنتظر.. ان يحكى لك كيف أنه اقترض أجرة القطار وأنه حتى اللفت ما وجده، وأن الأرض التى أخذها المالك ومات أبوه بسببها كمدًا، كانت فيها الصفصافة التى كنتما تفترشان ظلها وتتسامران تحتها.. اجتثها المالك، وكان كمال قد علق الربابة بين فروعها، وعندما علم جرى وقفز فوق الترع والقنوات والزرع والتفات العيون، هناك كانت الصفصافة نائمة على جنبها، والشمس تضرب بكف من صهد وجه الغيطان، وحصير الظل تبخر، وهو يبحث بين الفروع والأوراق، كانت الأعشاش مبعثرة، والبيض الصغير مهشمًا، وزغاليل الطير تعافر الطيران فى تعب،

أجنحة من زغب ورؤوس حمراء وأعين مطفأة، وعيال يتنططون وقد جعلوا من أسلاك الربابة نبالاً يقذفون بها الطيور العابرة.

كاد أن يبكى، وهو الذى لم يبك أمام أحد، يجرى وراء العيال مستجيراً، يقذفونها لبعضهم بين صيحات وضحكات وهرولة أقدام وبين انكفاء واعتدال تروح يده وتجىء وتلتقط بقايا ربابة مهشمة ماتت فيها النغمات وسيرة الهلالى والمواويل العتيقة، كاد لسان المالك يلتف حول جسده مخيفًا ولامعًا، يعصره إلى آخر نقطة، ويداه تستحيلان مطارق تدشدش قدميه اللتين عادتا إلى هذا المكان مرة أخرى، وفمه المفتوح بحجم المدى يصرخ أمام الخلاء فيسمع من لا يسمع، كان قاسيًا كوخز الجوع وقسوة البرد والألم وشمس الظهيرة وهو يمد رقبته كقردان ويصرخ فوق الغيطان:

- غوروا من هنا عاوزين إيه تانى.

لماذا كان الخلاء يضيق ووجه الكون يتغير فجأة وهو يفر راجعًا تطاردك آلاف الألسنة والمطارق وأعشاب الجسور وكلاب السكك وثعابين تنط فجأة من بين الحشائش، يشعر أن الكلمات التى تتبعه كالذئاب رسالة لإخوته البنات وأبيه الذى مات كمداً وأمه التى تتلوى من استسقاء فى البطن وانهيار فى الكبد.

ماذا كنت تنتظر أن يقول لك: إن أخواته كن يلكن قطن اللحاف من شدة الجوع، وإن أمه كانت تتسند على كتف الوجع والهم وبشفيف الضوء وجدران الخلاء وتسعى مع الرجل إلى التأمينات، باعت خلخالها وحلقها والعنزة اليتيمة وما أخذت شيئًا.

ولم تعد الحكايات مجدية ولا مسلية، لا المواويل ولا الأغنيات ولا الثمار المتساقطة من حدائق الآخرين إنها لا تسقط إلا فى حجور أبنائهم والأسلاك الشائكة المنصوبة حول جدران محشوة بالزجاج المهشم.. أتذكر الجرح القديم حين كنا نبول عليه فيلتئم.

لماذا كنت تنتظر أن يقولك لك: إن النقود التى اقترضتها مارد ما، والأم عند سماعها خبر موته لم تطرف عينها أو يتحرك لسانها بل راحت فى إغماءة طويلة وعينين منبلجتين صفراوين تنظران إلى بنات نبتت نبقات صدورهن فى انتظار أزواج لم يطرقوا الباب بعد.

ماذا تنتظر، والنحنحات تتزايد فى الخارج، إنه كان يصحو كل صباح على قدم المقاول وهى تدهس جسده، جبال من أسمنت ورمل وطوب، خلاطات وأفواه تنادى وأياد تعبئ، شكائر تملأ وأكتاف تحمل، نهار ساعاته تطول والحمل يتزايد فوق الجسد المنهك، لهاث ودوار، طوابق تعلو وسيقان تتقافز، بئر السلم عميق هناك عند بداية الكون ونقطة البدء وسابع أرض والنظرة تتدحرج، والكون يدور والقىء يتردد فى الحلق، والقدمان تنزلقان، فى البدء كانت الشهقة وانطلاق الجسد خفيفًا ورائعًا ومخيفًا. ثم ارتطام فى الرأس، كانت الأشياء تدور بسرعة مذهلة، الأسماء والأفكار والصور، وتخبطات فى الجسد أحس بها بعيدة هناك تدشدش الحوائط والنخيل وواجهة المدى حين ارتطم جسمى بالأرض والتف الناس حولى، كانت رؤوسهم تبدو كوراً بلا ملامح، والآهات تخرج منى خافتة، كنت أحسبها عالية وكنت أظن أن جسدى سيقف هكذا

فجأة ويقول لهم:

«متخافوش.. بسيطة» كما كنت أفعل حين أسقط من أعلى الأشجار عندما يخوننى أحد الفروع، والناس فى لهفة حولى وأمى صارخة وباكية ومقلبة ومدغدغة فى صدرى الضاحك وقائلة وهى تضحك أمام الجميع: «ياخوى قوم سيِّبت ركبى».

ولكن الروح كانت تنسلخ من شعب الجسد، كمن يغوص فى بحر الرمال، هكذا على مهل، يتخشب الجسد وتستجير العينان ويضغط الرمل الناعم بقسوة عاصراً الجسد، انظر حين كنت تمص عود القصب حتى آخر ريق حتى يستحيل نبتًا جافًا، شىء كهذا، وأنا أرى أبى قادمًا من فضاء البنفسج، نفس الوجه القديم والملامح الرائعة واللهفة على حين أختبئ بين أعواد القمح ويناديني متلفتًا بحيرة واشتياق وأصمت وأزحف وأعوم على مهل بين جذور الأعواد ورائحة التراب وشقوق الأرض والفراشات المختبئة وهو يتأمل شيئًا بين السنابل يتلوى ويمتد ويقترب ثم أرتمى فى حضنه المفتوح، كان متوهجاً فى عينى، يملأ الكون بكتفيه العريضتين، ويناديني بعشرات الأسماء والأماكن، كان صوته نحاسيًا ورائقًا، وحضنه الدافئ مفتوحًا حد الشوف، وأصوات الأكف من حولى تتخبط فى حسرة، والأقدام تتفرق وتمضى بعيداً، هنا تكشف الكون وبدا لى كنقطة، كنت أرى جثتى ملقاة على الأرض تتفجر منها ينابيع الدم أنهاراً وخطوطًا تشكل حروفًا وأسماء، كان جسداً يشبه جسدى، أضحكنى جلبابى الذى كنت أحيك رقاعه بشكل مدهش وخيط لا

يرى، والطاقية بجوار الرأس مفتوحة كحلة بلا غطاء، الأقدام تقترب والعيون تنظر والأجساد تفر هاربة، ساعات وأنا على هذا الحال أتأرجح بين الذهاب والإياب والألم والدهشة والارتقاء والهبوط. والدم يتدفق فى انهار الشارع، إلى أن جاءوا من بعيد ورأوا جسدى هكذا كانوا قد نقلوه إلى مكان آخر وأنا أتأمله من فوق العمارات والمبانى العالية والفنادق والأبراج والأشجار المنمقة والشوارع سيارة الإسعاف تصرخ وأنا أضحك على جسدى الذى تمدد على ليونة السرير تسنده الأيدى خشية السقوط وتتحاشى العيون النظر إليه، كان المقاول قد أتى من بعيد بعدما رفعوا جثتى، حيث المكان خاليًا إلا من الذين التفوا حولى وعاينوا سقوطى وشاهدوا دمى وهو يتفجر من أرجاء جسدى، كانوا قد جاءوا من كل صوب والتفوا حول المقاول بأيد كالمخالب يقتربون ويمدون أيديهم ويأخذون من يده نقوداً لا حصر لها، كان يغرف من حجره ويبدر، ويسمع القسم الآتى من الحلوق المفتوحة والأيدى المفرودة:

«مشفناش حاجه»..

فينط بجسده فى وسع المكان من عمارة إلى عمارة ويضع إصبعيه فى أذنيه ويصيح:

– مسمعتش... أسمع تانى

فتطلق الحناجر الرنانة مجلجلة بين جنبات القاهرة.

– مشفناش حاجه.

وراح يمضى بسيارته هناك بعيداً، كنت أراه يزوغ بين الشوارع

والأزقة بشكل مدهش وينفلت كالسهم، إلى أن دخل بيته، رحت ألاحقه بصورتى، وأدخل وجهى فى الأشياء التى يبص عليها، فكان يرانى فى التلفاز ووجه زوجته وأولاده والشوارع ولوحات الجدار وكل شىء حوله.

قلت له وهو نائم:

- حقى.

فتململ فى نومه العميق وهو يقول:

- انكسر حقك.

فضحكت زوجته وضحك ودخل فى دفء أحضانها.

كنت بلا ملامح أو هوية، وكادوا يدفنوننى فى مقابر الصدقة، أيام وأنا فى ثلاجة المستشفى، تصادقت فيها مع ناس كثيرين، كانت المشارط تشق أجسادنا فتتمزق بلا ألم، ونندهش إذ إن بطوننا تحوى كل هذه الأشياء، تأملت كبدى كان ساخنًا ولامعًا فى يد الطبيب، وكان مندهشًا لسلامته وطزاجته، ودسه فى حقيبة جانبية وسلمهم باقى أعضائى، كنت أضحك عندما كان يخيط جسمى على عجل، غرزة هنا وأخرى هناك، كان كمن يلملم شيئًا مبعثراً، لو معى الإبرة الآن لخطت جسدى بطريقة مدهشة حيث لا يرى أثر لموضع الخيط، أريد أن أقول لك إن جسدى الآن خفيف وسهلٌ ورشيقُ، أستطيع أن أتقافز وأطير كالفضاء، وأعلوا المبانى والنخيل والأشجار وأدس ربابتى حيث لا يراها الأطفال أو المالك، وأسترد كبدى، أنتزعه من بطن الخليجى الذى وضعوه فيه وأهديه لأمى، كى

تصحو من غيبوبتها، وتعاود العمل فى الأسبات والمقاطف وتجهز إخواتى البنات وتشترى لهم لحافًا جديداً، وتغير سقف البوص الذى نخره السوس، آه لو عثرت على مكان الطبيب الآن، لقد غير وجهه عشرات المرات، يستحيل معها يا صاحبى التعرف عليه، يصبح صقراً وذئبًا وحملاً وطائراً.

أستطيع الآن أن أحاذر الطوابق العليا وأحدد موضع قدمى فلا تنزلقان، وأنطلق، أعلم أن أخواتى البنات سيأكلن باقى اللحاف، ويلتحفن الفضاء وسخرية العابرين وجحيم الملاك والأغنيات والوعود ونشرات الأخبار وضجيج المدى، المدى الذى سينام حين يجن الليل، حيث سأتسلل بجسدى الرشيق هذا وأدفئهم قدر الاستطاعة، سأستحيل طائراً أجنحتى كبيرة بحجم الستر أدارى بها عرى أخواتى.

أكنت تسمع أم الخدر القديم يعاودك، ها هم فى بحبوحة الضوء، يستعجلونك فى الخروج، وأنت تتأمل الوجه القديم، تحنو عليه بدفء السنين ولوعة المشتاق وانفلات الصيد من قبضة اليد وتهلهل سنين العمر، تتذكر يوم أن قلت له (أطعمك لحم اكتافى) تود لو تقول له إن الجنية ليست ملككم، وإن صاحبها كان يأتى من مصر كل عام يأخذ ريعها ويحاسب أباك على الليمون الأخضر والتين الشوكى وما أكل الطير، لماذا لم تقل له إن مالكها باعها مبانى، وإن أباك ما طال منها شبراً واحداً، باع الجاموسة وكردان أمك، واشترى قيراطًا مثله مثل باقى الناس حتى لا تطردونى إلى الشوارع، وإن أباك

بكى أمامكن بالأمس ونهنه كالأطفال وهو يتأمل النخيل والأشجار وكروم العنب التى غرسها جده شامخة وعتيقة وعنيدة أمام الريح والموج، تحط عليها الطيور المسافرة وتداعبها الغيوم العابرة، عشرات البلط والمناشير والأيدى تنحر الجزوع، فتخر الفروع من عليائها بين طقطقات وهياج طيور وتهدم أعشاش وتبعثر تمر أخضر، وينام النخيل على جنبه مستسلمًا لأقدام عيال يلعبون ويجزون الليف ويأكلون الجمار.

مساحات تتسع وسيارات تأتى من الجبل الشرقى تفرغ البلوك والطوب والأسمنت.

وأبوك يهيل التراب ويئن ويقول:

– الأرض بقيت قرعة يا ولاد.

وأنتم لا تفهمون، كان يحتضن النخيل كالمفارق، وكان يسمى الأشجار بأسماء عائلته الذين واراهم التراب واحدًا واحدًا.

كان يكلم الأفرع والسباط، ويعاتبها إن قل الثمر، ويشكرها ويدعو لها إن زاد، وينام بين الفروع إلى أن ينعس وينزل آخر النهار، كان يتأمل بحزن فروعًا تناثرت على الأرض وفرت منها العصافير وتقشر لحاؤها عن جذور متوهجة بحمرة الدم كان يتشممها ويقول:

– والله فيها الروح يا جدعان..

ويعود يعانق السباط وكروم العنب وقحوف التين والسور الممتد وأشجار الكافور والزيتونة الوحيدة بجوار الخص والتى أصر أن

يشترى القيراط فى هذا المكان وألا يقطع هذه الشجرة التى ترتفع الآن وتحول دون تكملة البيت ويضمها ويبكى ويقول:

– عشانك انتى خدت القيراط هنا، وأنا اتولدت تحتيها يا ولاد...

كانت صوامع الغلال على حالها بجوار الخص فارعة وفرن قديم وحوائط طوف وخص تسوس بوصه، وكان يجرى ويقع ويمنع ويربو، وحين تعب كسح بجسده صانعًا خطًا فى التراب وهو يمد ذراعيه بحجم الاستعطاف لتلك الأيدى التى تهدم بمعاولها كل ما انتصب بين هدير ودكات أقدام وصيحات فرحة تميل على الوجه الصامت، تود أن تقول له إن مسجد السعف الذى تركته تذكارًا لى مازال معلقًا فى سقف البيت أبلله كل يوم بالماء حتى لا يجف، وإنه يذكرنى بالصلاة فأصليها فى وقتها، وإنى حفظت جزء عم والبردة وأحضر حلقات الذكر، وتلقيت الورد من شيخى وعصب على رأسى بقصاصة خضراء وقال لى:

– يابنى اللى غاب غاب خليك مع الباقى.

كم كنت أنتظر عودتك لأخبرك به «أستغفر الله العظيم مائة مرة، واللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم – مائة مرة – ولا إله إلا الله مائة مرة».

وقلت يا شيخى لماذا هذا الترتيب، فمسح على وجهى وقال:

انظر لمن عنده بيت ويأتيه أضياف ماذا يفعل؟ فسكت فى

حضرته قال أول شيء ينظف البيت بالاستغفار، ولمس قلبى بيد من نور، والشيء الثانى يرتبه بالصلاة على النبى - لماذا - فسكت فى حضرته فسقانى قلة ماء فى يده وضمنى إليه وقال:

حتى تدخل كلمة (لا إله إلا الله) والقلب نظيف.

كم كنت تود أن تقول له هذا ويقول لك إنك تقرأ حزب النصر للشاذلى وسورة يس وتنشد فى الحضرة.

وتقول له إن الأيام التى غبتها تغيرت فيها أشياء كثيرة، كم كنت أتمنى أن ترى أعمدة النور التى زرعوها على جنبات الجسر وطافت شوارع القرية وأضاءت البيوت بالمصابيح، وجوانب البحر حجروها بالحجارة، ومراكب الصيد تكنس الأسماك بالشباك الرفيعة، الأسماك والأفكار والأماكن تتداعى إلى ذهنك، فتدعو بقلب رطب وتتخيل رقدته هنا وهو الذى كان يخاف الاقتراب من المقابر نهاراً كان يخشى من أشباح الموتى والجان والغولة التى تغلى بنتها فى عز الظهر وتبخ النار فى شجرة السنط وترضع أبناءها بثدى كقبة الفرن، كيف يظل هنا وهو الذى كان يخاف الوحدة وفرقة الأهل والنوم وحيداً، إن الجسد الميت يوشك أن يلتصق بحافة المقبرة ويلوذ بالجدران ويحتمى بالعظام النخرة وأبيه الغارق فى صمته الأبدى.

كل الأشياء الآن تحتويك، الأوراد والترتيل والصلاة والتسابيح والرهبة والرغبة والذكريات القديمة والهسيس وعطن المقبرة.

والضوء فى الخارج يحبو على قباب الرؤوس، وسماء تنطبق

أطرافها على الأرض كقبة وقباب قبور ومسجد تركه لك تعلوه قبة وأطرحه وانحناء ظل وأفكار تحوم فى قبة رأسك الأفواه فى الخارج تستعجلك:

- هيا.

كان صوته يصرخ فى أعماقك وى، ويستشهقك ويتسحلفك بنقوش الظل وماء البحر وفيض الورد وصون العرض ورب الأرض:

أن تذهب إلى المقاول وتسترد حقه.

يرتفع صوته جلياً فى أعماقك:

اذهب إلى قسم البوليس كى تأخذ حق دمى الذى روى أرض العاصمة ودلى الناس ألسنتهم من أبراج الزمالك والمهندسين والمعادى وجاردن سيتى وتناولوا دمى طازجاً، وكانت ألسنتهم تلحس جسدى وتحك كالحلوى العسلية فى لحم العذارى كان يرجوك أن تذهب إلى الطبيب وتستعيد الكبد وتعطيه لأمه كى تفيق من غيبوبتها وتدارى عرض أخواته.

الأصوات تعلو بالخارج:

- يا لله الليل دخل علينا يا قمرى.

وخرجت تحبو على لدن التراب، وتتأمل شمساً غاصت فى حجر المغيب وتقرأ الفاتحة على صديق كان يسمى الأشياء العادية أسراراً.

«كائنات الجدار»

السيجارة اليتيمة فى فمك ساكنة كقلم هجرته الكتابة فبات وضعه مقززاً بين نمنمات التحف.

والآن انتبه، سنارتك تغمز، والسمك يتمطى متثائباً ويشق زجاج الماء، رؤوس سمراء وحلوق مفتوحة تندفع إلى سنارتك وأنت تتركها تغطس حتى تغيب الغمازة تحت سطح الماء، ثم تجذب، لا عنف ولا رفق، تطمئن على وضع السمكة ووزنها ونوعها، تتلذذ لفرارها اليائس تحت سطح الماء، وتشعل الفرحة فى صدر الأولاد الملتفين حولك وعيون النسوة على الموردة القريبة وزوجتك التى جهزت الزيت فى الطاسة المحروقة وفصصت الثوم وانتظرت رجوعك.

قلت لى إن الأسماك كانت هنا كثيرة، وكنت تمسكها بيديك،

وتجدها فى السدة الشتوية ترتكن على جوانب الرمال مستسلمة للموت والدفء اللذيذ، وأنت تتبع حواف الرمال وحفر الماء وتكبش وتعبئ فى كيس كبير.

كنت تبيع بالبركة وتقول:

«كله من فضل الله وخلى الفقير يآكل وقرموط للولد الصغير وحتة بياض للراجل».

وتعبئ فى حجر المرأة وتدس عينيك فى فتحة الصدر وتمسك قرموطًا حيًا وتداعب به وجهها الخائف، ضحكاتك تتعالى حين تغز زوجتك إصبعها فى جنبك مغتاظة..

- اديها وخلص خليها تلحق تعملهم للعيال.

وكلما لعب القرموط فى حجر المرأة انطلقت وحوحاتها وهى تضحك وتدارى السمك عن أعين العابرين.

وفى الصيف تدور بملقاف صنعته بيدك، شبكة يحيط بها سلك وعصا طويلة، تضعها على حذر فى مواجهة سمك يحبو على حصير الماء ويدخل فيها، ترمى على جانب الشاطئ، وزوجتك وراءك بالكيس تمسك وتسمى وتعبئ وتفرغ فى البيت وتعود.

كان الشاطئ ملكك والأسماك والمحار وحكايات النسوة على الموارد عن الليالى الفائتة، ودحرجة النكات والكلمات المكشوفة على واجهة الماء، فتسمع وتضحك فى عبك وتنظر بشق عينيك وتداعب بإصبعك واجهة المدى وأنت تسمع حديثهن عن المسحور، عن الغجرية التى خانها زوجها فسحرته ودفعته إلى البحر يأكل

السمك ويأتيها بالأخبار والكرادين والخلاخيل والرجال يحكون عنه «شعر طويل وعينان حمراوان وجسد يزحف كثعبان تحت الماء ويهيل الأشياء فجأة ويخرج عاريًا ومخيفًا، يطوح ذراعيه كمجدافين ويحارب كائنًا وهميًا ويتصيد الطيور العابرة.

فيمنعون زوجاتهم من الذهاب إلى البحر ولو أدى ذلك إلى طلاقهن، عشرات الأيمان تنبدر من أفواه الرجال قبل ا لذهاب إلى الغيطان «طلاق تلاته إذا رحتى ع البحر تكونى محرمة على».

قالوا إن المسحور يدغدغ سمانات الأرجل، وتزحف يده تحت السراويل حيث الشهقة والضحكة وانسدال العيون، وحلل وصحون تعوم أمام الوجه النعسان والغارق فى حرقة الشبق، وتنفلت الأشياء من الأيدى وتذهب مع الماء إلى البلاد البعيدة هذا إذا كانت فى جماعة، فكيف إذا كانت بمفردها.

الرجال يقسمون أن النساء تصر على أن يذهبن فرادى إلى البحر فى عز الظهيرة حيث القيلولة ونوم الرجال والأولاد، هناك تطول الشهقة والوقفة.

وأنت تقول إنه لا مسحور ولا غيره، والمسألة أن الشباب يستحمون فى الظيهرة، يرمون بأجسادهم وفيض العافية على صفحات الماء بلبطة وضحكات وأجساد عارية يطوحها التيار على الموارد.

وترفع إصبعك متحديًا من يقول عكس ذلك.

قلت لى إن بحر يوسف كان ذلك منذ الأزل، ساعة أن حمل

جدك إلى هنا حتى بناء السد العالى حيث انكمش على نفسه وسار مرغمًا فى مجراه هذا، وترك الأرض من حوله لمن استطاع أن يضع يده عليها، كان ذلك.. قبل أن تأتى القوارب والشباك ويباع الموسم لأصحاب المراكب، يخبطون بعصيهم ويلملمون فى شباكهم ويطردونك كلما رأوك جالسًا بسنارتك.

كان ذلك قبل أن يأتى صيادو المدينة على موتوسيكلاتهم ومعهم مكن الصيد والعيدان الطويلة والفسفور والطحالب ويستخرجون السمك أمام الجميع، يحددون مكان تجمعات السمك تحت الماء ويضعون سنانيرهم، حقيقة أنك تعلمت منهم كيف ترمى السنارة وأرقام السنانير وأنواعها ومواسم الصيد وتعليق الطحلب الأخضر فى السنار رقم (٨) وتطويل المسلك وتسمع حكاياتهم عن الأنهار الأخرى وأنواع المكن والسنانير والطعم والتعامل مع الأسماك العنيدة وأن كل هذه الأشياء بما فيها الطعم والطحالب تباع فى المدينة فتذكرت ما يحدث لك فى الصحراء الغربية من أجل الطحالب وقررت أن تدبر جنيهات ولو من السجائر وتشترى طعمًا وطحالب.

كنت تشعر أن البحر يعرفك، ويفرح لمجيئك، وهو الوحيد القادر على تسمع آهاتك والمواويل.

ياه يا قمرى.. ليتنى ما فجرت فيك الذكريات، ولا صحصحت فيك المواجع، سحابة من دهشة تكسو وجهك فتبدو تجاعيده غائرة، وعيناك تتسعان فى حنق، قطرات العرق تتدفق على وجهك

والنسائم العابرة عاجزة عن تجفيفها، وأنت تنظر إلى الماء العابر محملاً بالأعشاب ومخلفات البلاد، تختلس نظرات هناك، حيث الصياد بقاربه بمجدافيه واجهة الكون وزجاج الماء والسكون المبهم، كم من مرة عثر على أقفاص تضعها خلسة بين الحشائش وسنانير تعلقها بالأسماك الصغيرة لتبلعها الأسماك الكبيرة وتدور من الفجرية على الشاطئ فى موسم تزاوج القراميط، تعرف المكان حيث بقاع الطمى الدافئة وتصب العفريت، تكسح وتحبو تختار الكير تغز شوكتك فى عمق الظهر فيفر الباقون كالخراف ويتهشم وجه الماء ويعلو الضجيج وأنت تعافر مع القرموط بعيدًا عن الشاطئ وتسرع إلى بيتك قبل طلوع الشمس.

من دل الصياد عليك.

أنت تقول إنه صاحبك (ناصف) الذى علمته الصيد ودفأته بالليل وقشرت أصابع البطاطا المشوية وحشرت فى فمه، صاحبك الذى يتبعك كظلك، وتعطيه من طعمك وسنانيرك وتقاسمه الرغيف وكوب الشاى والضحكة والسيجارة من خلفك يخبرهم عنك، مناه صاحب القارب بالعمل معه على القارب، ثلاثة جنيهات فى اليوم والفطور من القارب فحكى له عن أسرار بيتك ومعيشتك والبلد والنسوة وما يحدث فى الليل، فكان يدور بقاربه أمام النسوة على الموارد ويرمى كلامًا يكشف المستور، والنسوة مندهشات كيف عرف هذا الغريب أسرارهن.

الصياد يخشى على شباكه منك، وأنت تحلف أنك لم تمسسها

أبداً وتقول «الحكاية هواية والرزق بيد ربنا» ولكنه لا يعترف بذلك، حذرك أكثر من مرة، وكانت العصا هى الفيصل، حين ضربك على ظهرك، كانت المرة الأولى التى تحس فيها بهذا الألم، لم تعرف أنه ركن قاربه هناك، تسلل بين الحشائش كثعبان ووقف وراءك ورفع عصاه حتى الغمام ونزل بها على ظهرك، كانت قوية وصائبة أحسست بيبس فى جسدك ووقوف الموال فى فمك ودوران الدنيا حولك وأنين يعصر الروح ويمزق الجسد، سمعت صوته الآتى من وراء الأزمنة والسنين والشواطئ والأمواج وهدير السيول والتقاء السيوف ساعة المعارك وانتكاس رأس العريس الخائب فى ليلة الزفاف ووقوع الحوائط على أصحابها فى الليل، كان قاسيًا ومخيفًا وكانت عيناه عائمتين فى بحر من وهج وفمه مفتوحًا بحجم الكون وهو يغز طرف عصاه فى ظهرك.

متشجع ع البحر تانى.

ومضى بقاربه يشق البحر ويرتكن على الشاطئ الآخر، ويراقب وقوفك المتعب، وأنت تتلفت حولك خشية أن يكون أحد رآك وأنت تضرب هكذا، فتصبح سخرية للناس ومضحكة لأهل هذه البلدة الذين يجعلون القط جملاً.

كان المكان خاليًا إلا من كلبين متلاصقين من الخلفيتين يلهثان ويتجاذبان ويستسلمان للضوء الفاضح، فتلفت حيث لا أحد يراك وعدت إلى البيت تجرجر خيبتك وألمك وتبكى تحت اللحاف.

الآن هو قادم من بعيد، يشق البحر بمجدافين وعصا مرفوعة

ويمسح الشاطئين بعينين ناريتين، ويلمحك فيقترب منك. فيتبدى وجهه أمامك قاسيًا وسدًا منيعًا، آلاف عيون وآذان وطيور فى جو السماء ونخيل يتحايل ويسمع صياحه وهو يطردك:

– غور من هنا، أنا اشتريت البحر.

ويصفع وجه الماء بعصاه فيتطاير الرذاذ على رؤوس النخيل..

فتتقهقر عائداً وسط قهقهات الأشجار ونسوة الموارد والطيور العابرة. ساحبًا إصبعك من شفيف الخلاء عرفت أن الأسماك التى فى بحر يوسف وترعة الإبراهيمية والسنجة والترعة المجاورة يملكها عزيز الفخرانى، جالس هناك أمام حلقة السمك فى شارع الجزارين يأتيه الصيادون بزكائبهم وريع الموسم ويقسم عليهم مساحات الترع والبحار.

والصيادون جاءوا من البلاد البعيدة والمجاورة، نصبوا شباكهم بالليل وقواربهم طوافة بالنهار، يعيدون بالعائم والغاطس فلم تعد ترى أسراب الأسماك المفروشة على وجه الماء، ولا الرؤوس والأفواه التى تتمتم بآلاف التسابيح والحكايا، ولا القراميط ولا حتى الأسماك الصغيرة، إن مكانس شباكهم تكسح رمل الشاطئ والقاع والأشياء المنسية وتخبط عصيهم فى انتظار أمهات البلطى التى تأتى للتزاوج فى موسم الربيع، فترى الشباك تخرج ممتلئة أمام عينيك وأنت الجالس منذ الصباح لم تغير الطعم ولم تغمز معك سمكة واحدة، يعبئون فى بطون القارب ويرمقونك بعيون نارية، هم الأغراب الذين تراهم لأول مرة حتى عائلة الصيادين الذين جاءوا من

بعيد واستقروا هنا وكانوا يصيدون بالخطاطة والشباك فى (اليوسفى والدفعة) تركوا هذه المهنة منذ سنين وتهرأت شباكهم واكتفوا بفدادين قليلة ودربًا باسمهم ولم يبق منهم سوى ذكريات عائلة كانت تنكفئ على أسرارها، وباب يغلق على عشرات النسوة والطقوس والحكايات والحكم القديمة، واشتغل معظمهم بالفلاحة والوظائف الحكومية.

هو البحر بعينه الذى سمع مواويلك وأسقطت صدفات دمعاتك على صفحته حروفًا منسية، أصبحت ترتضى منه بالقليل ربما بواحدة زاغت من شباك الصيادين وأخرى كانت نائمة بين الأحجار وخرجت تتمطى وارتضت طعمك الهزيل، وأنت تقول «إن المقسومة مقسومة وإن القعود على البحر بمال الدنيا وإن شيخك علمك بأن الصيد رزق لا شبهة فيه».

تهدهد نفسك وتسلى روحك المتعبة بالصغير.

وبناتك هناك زائغات بين الحقول، يضربن بمناقيرهن فى جنبات الأرض حيث البقع المنسية وأصابع البطاطا والدود الذى يحتفظون به لسنارتك، يهرولن خلف الجرارات، تسبق أيديهن أيدى العيال والنسوة وأبى قردان، يلتقطن الحبات الرفيعة وأعشاب يابسة للتدفئة والشاى، وتمتلئ حجورهن والصدور.

الآن.. مشط البلطى همد تمامًا، والعيال زاغوا بين الدروب، والنسوة على الموردة عدن إلى حديثهن المعاد، والمخلاة بجوارك فاتحة فمها، وانت تتلفت خشية الحسد، تدارى رزقًا قليلاً، وفرحة

تغمرك، وتحكم إغلاق مخلاتك الآن.. الآن يبتسم.. ياااه، قل لى موالاً إذا، شيئًا عن الغليون ومرسى المراكب وعزيزة ويونس وخضرة مع الصياد احك لى عن الأزمنة المنسية، من علمك هذه الحكايات وأحاديث الأقدمين وسير البلاد، وأنت لم تكمل تعليمك الابتدائى، خرجت من الصف الرابع لتساعد أباك فى جمع ثمار الجنينة، الجنينة التى أصبحت الآن منازل يحسبها التائه كهوفًا ومغاور.

ما زالت ورقاتك المكتوة بخط مدهش، أحتفظ بها بين كتبى والتحف «ابعث لى سنارتين نمرة ٨».

لا أدرى كم أخذت من السنين لتنمق هذه الكلمات وتجعلها رائعة هكذا، تصور أننى أحيانًا لا أعرف أن أقرأ خطى الذى اكتبه بيدى لاتندهش.

قلت لى إن الذى علمك الكتابة هو (سيد أبوعمر) العامل فى المدرسة الابتدائية، أتى به معروفًا من بحار الفن والسلطنة والدماغ الموزون (المتكلف) على حد قوله والذى لا ينضبط إلا بعد خمس سجائر حشيش وكم نكتة.

وأنتم فى الفصل تضحكون وتنقلون الخط الذى كان يروح ويجىء فى كتابته كراقص عصا، يطوح يده فى الضوء الشحيح كأنما ينقل الحرف من الهواء ويضعه على السبورة الباهتة، يرجع للخلف ويتأمل الحرف ويرفع حاجبيه ويسحب نفسًا عميقًا من سيجارته المحشوة فيشتعل طرفها ويتوهج الفصل وتتصيد أنوفكم

خيوط الدخان ويصيح :

«تسلم يمينك يا بوعمر».

يدور عليكم واحداً واحداً، يتفحص ما نقلته أيديكم الصغيرة فما كتبه أنتم تحفظونه..

«دع سمائى فسمائى محرقة

دع قناتى فقناتى مغرقة».

يبص فى الأوراق ويقف عندك طويلاً، يده على التختة وخيوط الدخان تتجه مباشرة إلى أنفك، وهو يميل عليك بجسده القصير :

«تسلم إيدك يا ابن الجناينى».

كان يحكى عنك للمدرسين الذى يجيئون من المدينة، وهم يحكون عن (أحلاهم) التى ينتظرونها عند طريق (تلة) حيث يأتى بها السائق من الجراج (تكركب) وتقف ساعات تلملم الناس فلا شىء يوصل للقرى غيرها، والسائق (ابن مركوب) يشتم ويلعن ويترك الناس يتساقطون بجرارهن والأسبات ويرمح فى الطرق الترابية، يهيل التراب فى وجوه البلاد وهيصة العيال الذين يسرقون الإسفنج من كراسى الأوتوبيس ويصنعون منه كوراً، ويكومون التراب أمام العجلات محشوا بقطع الزجاج والمسامير، والأوتوبيس يرتفع إلى أسطح البيوت وينزل بين صراخ وضحك وتقلبات وجرار تدلق ومشن يفوح ولبن زير يغطى الأجساد، أفواه تتلمظ وشوارب تبرم وعيون تتحين وأبدان تنقض وصرخات ترتفع.

وحين يتوقف الأوتوبيس وتهدأ الحركة وتطل عينا السائق من

المرآة المغبشة تكون الأجساد قد أخذت أوضاعًا مختلفة على الكراسى وتشققت صحاف الوجوه المكسوة بلبن الزير عن أعين تبص وتتمنى وتدارى خجلها وتترقب مطبات أخرى.

ويحكون عن فناجين الشاى الصفيح التى ترتفع عند كل قرية فيشرب السائق والكمسارى ويمضغان التفل والأحاديث وينهران من يستعجلهم.

– لما نشرب الشاى على مهل.

وبين قرى ومطبات وأكواب شاى ترتفع ووجوه تتغير وعفار يعلو ومفاصل أجساد تتفكك وعطل لا ينتهى وأكتاف وأزرع تزيح الأتوبيس الذى نامت عجلاته، والسائق يضحك فى عبه ويمضغ تفل الشاى، تمر الساعات وتتبدل الملامح ويصر السائق على أن يلف قبل نهاية الخط، ويرتفع صوته :

– آخر الخط يا جدعان.

وتدور المعارك الكلامية بين السائق والكمسارى من جهة، والمدرسين من جهة أخرى، تفصل فيها العصا التى يسحبها السائق من تحت الكرسى ويصيح :

– اقفل الباب يا كمسارى.

وقبل أن يقفل الكمسارى الباب وتحط العصا على الرؤوس الصارخة تتسابق الأجل فى النزول.

ويمشى المدرسون يجرون خيبتهم عبر البلاد والطرق وأكوام الروث وصفوف العيال الذين يقضون حاجاتهم على جوانب

الطرقات وأصوات الأمهات اللاتى ينتظرن المدرسين أمام البيوت ليشتمن أولادهن بصوت مرتفع والمدرسون حكوا، وأكلوا سندوتشات الفول أمامكم وجلسوا متعبين يتأملونكم فى ضيق، وأنت تغز إصبعك أسفل التختة، فما زالت صورة سيد أبوعمر عالقة فى ذاكرتك، ورائحة الدخان الأزرق الكثيف الذى كان ينطلق من سيجارته الغليظة، وتتذكر نكاته وتضحك مع نفسك بصوت عال بين اندهاش الجالسين، وتتذكر سؤاله اليومى حين يميل عليك بسيجارته ويسألك:

– يا واد عندكم جوزة طيب فى الجنينة؟

وتسأل أبوك:

– يعنى إيه جوزة طيب؟

فيخرق أبوك الهواء بإصبعه ويقول:

– ده راجل رايق.

الآن تضحك من قلبك وتتذكر يوم أن جاء الأستاذ ناصر وقد ربطوا رأسه بمنديل ونزلت خيوط الدم على الحاجبين، وأجلسوه أمامكم، ولأول مرة ترون هذا الأستاذ الذى كنتم تخافون.. يبكى.. كان مصفراً أو شاحبًا وذليلاً وكان صوته ضعيفًا ومتقطعًا وهو يحلف ألا يعمل فى هذه المدرسة بعد ذلك.

وبعد تهدئته ونكتة من سيد أبوعمر ضحك الأستاذ ناصر وغسل أبوعمر البراد ودلقه فى برج الحمام المجاور وغمز بعينيه للمرأة البدينة هناك تنفخ الحب فى فم الحمام وهمس:

– والطير الغريب ملهش نصيب؟

وسمعنا ضحكة المرأة هناك وهى تطير حمامتها فى براح البرج وعاد يسأل الأستاذ ناصر:

– أكيد الكمسارى أبوعينين خضرا؟

– هو، فى غيره.

وعاد إلى بكائه وشهقاته مرة أخرى وحكى وهو يتحسس موضع الجرح عن ذلك الكمسارى البدين والذى يدهس الناس ذهابًا وإيابًا وهو يعطيهم التذاكر.

– أنا ياخوانا بقول للسواق امش شوية الوقت الوقت راح بصيت لقيت الكمسارى نازل على وشى بإيده اللى زى المرزبة كان وجهه مزرقا ومثيرا للشفقة وكاد الأولاد يبكون، ووقف سيد أبوعمر يرفع حاجبيه وينفث بغيظ دخانًا غزيراً ويروح فى صمت عميق.

الكمسارى البدين الذى تعشقه نساء البلاد ويميل عليهن بصدر مترجرج وهو يضرب على المنافيستو ويهمس بصوت ناعم:

– تذاكر يا أختى..

كان وجهه أبيض رائقًا خاليًا من الشعر وكان يتلوى ويهز مؤخرته المكسرة وهو يكسح الواقفين فى الممر، وعندما يلمح نسوة يغنى بصوت طرى:

يا ولاد عمى ساعدوه بالمالِ

وأنا أساعد أخوى بحلقى وخلخالى[1]

فتضحك البنات وتملن على بعضهن وسط الحنق المتزايد بين

كراسى الرجال، وكثيراً ما كان يترك البنات ويعطى الثلاثة تذكرة واحدة فى حين أنه كان عنيفًا جداً مع الرجال، حيث يحتك بأحدهم واقفًا يزيحه بكتفه ويقول:

- جنب شويه ريحتك زفت.

وعينه هنالك على نسوة يضحكن..

طول الطريق يشرب الشاى ويلقم فصوص البرتقال ويحكى مع النساء فى الملابس وزيت الشعر وأسرار البنات والبيوت وعندما تأتى سيرة الرجال يكبش يده ويفردها ويقول:

- كبه، صنف نمرود بعيد عنك يا اختى..

والنساء يحكين له عن كل شىء حتى الأسرار الخاصة ويعطينه قراطيس اللب ولبان الدكر ويتحسسن يده اللينة كالعجين، كان حديث النسوة فى البيوت وعلى الموارد لا ينقطع عنه، مما أثار غضب الرجال، فمنع البعض نساءهم من ركوب أحلاهم أو الذهاب إلى سوق الاثنين ودارت (الحقارة) تشترى السمن من البيوت.

يلطم النسوة خدودهن ويصحن:

- يعنى نبيع السمن بنص الثمن.

فترتفع عصى الرجال وأصواتهم:

- اسكتى يا ناقصة انت وهى.

وسيد أبوعمر كلما دنا من مصطبة أو بيت تقابله سيرة الكمسارى، فوقف على رؤوس الجالسين ورفع حاجبيه وقال:

- طب واللى يطمنكم؟

- على إيه يا بوعمر؟

- حاجه ف دماغى.

وسحب نفسًا من سيجارته وغاب فى عالمه الصامت.

كان قد ركب معه أكثر من مرة حين كان يذهب لتسليم أوراق فى الإدارة التعليمية، ونظر إليه بعينى خبير، ما الذى كان يدور فى عقل هذا الرجل حين يتابع حركات الكمسارى وهو يميل على النساء ويضحك ويهز صدره المكتنز ويسدل عينيه فى نعومة، كاد سيد أبوعمر يأكل نفسه والسيجارة وهو يتكئ على الكرسى وسنوات من قعدات المزاج والسُّطل ووجوه الغوازى والرجال والنسوة حتى الشواذ وأصحاب العنة والنسوة المترجلات.

لقد بدأ هذا الكمسارى أمام عينيه مزيجًا من هؤلاء جميعًا، إنه يتابع حركة اليدين وهما تحكيان نيابة عن اللسان، وتلك المؤخرة التى تمنعه من الاستدارة فى الأماكن الضيقة، إن لحمه المترجرج وكتفيه المستديرين وبروز صدره وتهدل أكمام السترة عند الكتفين لا تمنعه من رشاقته وحركته السريعة وقوة ذراعيه اللتين تلقيان بالرجال من نوافذ الأتوبيس.

إنه يراه يقترب بأسراره وقوته ولمعان عينيه اللتين تتجهان إلى النساء.

لقد تعمد حين مر به أن يحك بكتفه بين الساقين الكبيرين، كان الكمسارى عاليًا والبطن التى تغطى الرؤوس بعيدة، وسيد أبوعمر يزحف بكتفه هناك حيث تصطك الكتف بين الفخذين، حتى غاص

الكتف بين جبلين من لحم كان الطريق المؤدى من السرة إلى المؤخرة خاليًا وناعمًا ولا شيء يعترض الكتف المتجول، جفل الكمسارى وسحب نظراته من كرسى النسوة، كان كمن لاحظ شيئًا أو يخشى شيئًا، حين رجع إلى الخلف وتفحص الرأس الجالس والكتف الذى غاص بين الفخذين.

كان البطن الممتد بحجم الكون يعلو ويهبط وأنفاسه اللاهثة تكسح الغبار من سقف الأوتوبيس، كان يغرس نظراته فى الجسد الجالس ولكن سيد أبوعمر تجاهله بحرفة بالغة كان كمن لم يقصد وشد آخر نفس فى السيجارة وتناوم حتى آخر الخط هناك.. افتعل معه معركة عادية:

– خش قدام شويه يا اسطى.

وكالعادة انفلت الكمسارى رافعًا قبضته إلى الوجه المتكلم، إنه نفس الوجه الذى تفحصه منذ قليل حين غز كتفه بين ساقيه ثم تناوم، هذا الوجه الصاحى يحدق فيه بعينى قط ومخالب تنمو فى الجسد القصير، كانا يندفعان إلى بعضهما كقدر محتوم ونهاية مطاف، كان الكمسارى الذى عرف مراد الرجل الآن يكسح الكائنات أمامه ويهيل الرؤوس على الجانبين ويندفع بغل السنين والمداراة والموت الأذلى، وكان سيد أبوعمر يدرك ذلك فاندفع بين ساقى الكمسارى كمن يلج فى لبد القطن الساخن وشد بنطاله، كان محبوكًا بدكة قوية، وكانت المؤخرة الكبيرة تحول بينه والانسلاخ لقد زاغ بين قدميه وتشمم البول والعرق، والساقان

تنطبقان على الوجه فتنبعج الملامح، وصخرتان من قطن مكبوس تعصران الجسد، اليدان كلاليب تمسك بالسروال وتجذب.

كان الكمسارى يعرف أنه يجرده من حياته وما خبَّأه طيلة هذه السنين، فيضرب الرأس المنحشر بين ساقيه بكل قسوة وخشية من انفلات السر وانكشاف الستر، عيناه تستجيران بسائق بدأت تأخذه المفاجأة وتخيم على وجهه الدهشة، والسروال يشد، وأبوعمر لابد كخفاش يجذب بحجم الغضب، واندفاع الدم من الأنف والفم وألم القبضة التى تنزل بقسوة السنين على رأسه وأيام من حيرة، وطلاق نسوة، وخراب بيوت واندلاق جرار وسمن بلدى وأحاديث النسوة على الموارد عن ذلك الكمسارى العملاق ذى العينين الخضراوين والقبضة الحديدة. فيشد كمن يسلخ ذئباً يفر.

والكمسارى بين قشرة الدمع والخوف ينازع الروح المنسلخة، ويغرس عينيه فى وجه هذا الرجل الذى جاءه من وراء السنين، لقد تقرفص بين رجليه كمن يولد لبؤة، زئير وخمش وغرس أنياب بحجم الخلاص وقبضات يد تنزل من على الرأس المعاند وأيد تتشبث بالسروال كغريق، كان كمن يتعلق بمؤخرة جمل هائج، وبين جذب ودفع وتقلبات وصراخ ودم يسيل وأعين تتلفت، جسدان يتقلبان على تراب الجسر، ووجهان مشوهان وفخذان تنسلخان عاريتين أمام الجميع، عندها تراخت قبضات يد الكمسارى القوية وتقنفذ على حافة الجسر، يدارى نفسه بيدين ترتخيان وقد بدا بين فخذيه ممسوحًا كقشرة البطيخ إلا من ثقب ينز الماء، وهو يولول بصوت

يجرح محيط الدهشة «يافضيحتى ى ى».

وعاد سيد أبوعمر نافثًا دخان سيجارته أمام الوجوه، يرفع حاجبيه أمام نسوة يتغامزن ويدارين خجلهن تحت الطرح وما عاد بعدها الكمسارى ولا أحلاهم، وركب الناس سيارات حتى لا يخرجك من المدرسة ويقول:

– ابنك شاطر سيبه يكمل تعليمه.

فيرفع أبوك إصبعه فى وجه الجميع.

– يا خوانا يساعدنى.. يعنى هناكل منين

ويسحبك من يدك وسط مصمصات الشفاه وتوسلات سيد أبوعمر حتى اختفى بك بين أشجار الجنينة.

تقول إن الخط من الحظ.. فلماذا إذا حظك معاكس. وأنت الذى تلتقط الصنعة من الهواء، تعلمت حياكة الملابس ورتق الأحذية والبناء والمحارة والفلاحة وتلقيح النخيل وتصليح الراديو.

تهز كتفيك وترفع إصبعك وتقول:

«يمين بالله ما عينى تحط على صنعه إلا وتعشش فى نافوخى ده».

وتغز إصبعك فى رأسك.

الرجل من ثالث غرزة فى النعل قلت له «بعد إذنك يا معلم» وراحت يدك تعمل فى الحذاء كأنك «جزماتى قرارى» أبًا عن جد، والرجل مندهش يناولك فردة بعد فردة، ويلضم لك الخيط، ويشعل لك سيجارة من سيجارة، والناس يتفرجون عليك وما عاد الرجل بعدها، وعندما يقابلوه فى الأسواق يسألونه «مش بتيجى البلد ليه

يا عم سمير»؟

فيتنهد ويفز فى غيظ حذاء فى يده ويقول:

– عندكم القمرى.

فلماذا لا يأتون إليك، رغم أن الأحذية تهرأت والأصابع كلت من شبابيكها على وسخ الشوارع، وأنت تراهم وترفع إصبعك وتقول:

«الحفيان هيفضل طول عمره حفيان».

وكأنهم لا يسمعون حين يضعون أحذيتهم تحت آباطهم ويذهبون بها إلى الأسواق والبندر حيث هناك يدفعون الكثير، ومن أول مشوار تطل الأقدام التى ما تعودت الحبس من فتحات الأحذية. تعلمت جس البهائم بدءًا من عنزتكم التى أولجت إصبعك فيها وطفت به فى التجويف الدافئ وعددت الرؤوس وعرفت أن فيها سخلين، وانتهاء بجاموستكم التى باعها أبوك من أجل القيراط وعرفت أن فيها ثلاثة أشهر وعدوا عليك وعلى آخر يوم فى العشرة أشهر أطل العجل من حيا الجاموسة.

من يومها تعرف ابن ليلته، ولكن لا أحد يسأل فيك، يستعينون بجساسين من بلاد بعيدة، الواحد يأخذ خمسة جنيهات ويشرب شايًا ونفس معسل ويشمر كمه ويولج الذراع حتى الكتف ويدور باليد ويصبح مبتهجًا:

– الحلاوة يا جدعان الجاموسة عشر خمسة (وهى ليس فيها يومًا واحدًا زغرودة ترتفع وأحضان تتلاقى وصاحب البهيمة ينتظر الفرج شهوراً ولا شىء حتى تمخر البهيمة طالبة العشار.

وجلست بجوار الخياط، ومن أول قصة عرفت كيف تمسك المقص وتقطع القماش المرود جلابيب وصدارى وطواقى، بعت خلخال زوجتك واشتريت ماكينة خياطة، أكلها الصدأ ولم يأتك زبون واحد، يقطعون المشاوير على الركايب حيث الخياطين فى البلاد البعيدة، لهدوم تظل شهوراً، والحمير تكل من السير والخياط يؤجل، وأنت تحلف أنك لن تأخذ منهم سوى أجرة الخياط والأزرار ومع ذلك لا يأتون إليك ولا يرحمونك من ألسنتهم ويقولون ربما يسرق منها وأنت تعلم أن معظم هذه الملابس جاءتهم هبات وهدايا ممن يعملون فى دول الخليج وبوابى العمائر، وأنها بالكاد تكفى أجسامهم وأطوالها عند الكعبين.

ترى الواحد منهم ينط على الركوبة وقطعة القماش ملفوفة تحت إبطه ويتعمد المرور من أمامك، وربما مال عليك وألقى نكاتاً تضحك العابرين وهز رجليه وأسرع بحماره صوب البلاد البعيدة، وأنت تتساءل لماذا يتعمدون ذلك حين يتغامزون عليك، أنت تخيط جلابيبك بنفسك وتجلس بها فى المآتم والأفراح «الجلباب مرسوم على جسمك مكوى كجلباب مكرم المنياوى وعبد النبى الفنان».

أنت لم تعد تتضايق من شىء، البلد هى البلد، وهذا رأيك منذ الأزل حين تقول للجالسين:

«بلد تموت فى الغريب».

وأنت الذى تجيد بناء الحوائط والأفران والمصاطب والقبور يتركونك ويستعينون ببناء من البلد المجاورة يقولون إن دقتة متينة ويضع القالب

فى موضعه، وأنت تقسم أنت عيوبه ظاهرة فى كل حائط ومبنى، حتى المقابر علاها كالحجرات على هيئة قبور النصارى وبنى مأذنة المسجد فى العزبة المجاورة على هيئة فنار الكنيسة، وكنس دجاج البلد والأوز فى بطنه فلم تعد تسمع ديكًا يؤذن ولا أوزة تصيح يلتفون حول التجار الأغراب وبائعى الخضار ويتركون تجار البلد.

والناس يتدافعون إلى حجرتك وموقدك والشاى الثقيل، تحكى لهم وتغسل همومهم بالضحكات، ومع ذلك لايستعلمونك فى أى شىء.. رغم الشاى الثقيل الذى شربوه والذرة المشوية التى أكلوها وحكايتك التى لا تنتهى.

ياااه يا قمرى.....

ألهذا الحد تدشدشك مطارق الهموم، وأنت الذى ما انحنيت لموج ولا خانتك أقدامك فوق أعالى النخيل كنت من هناك تمطر فضاء البلدة بالمواويل، فتشرئب الأعناق صوبك بين ضحك وبكاء وتذكر للغائب وميلة الدهر وفراق الأحبة، كنت تحتفظ بالمواويل وترددها رغم ما يضج حولك من أجهزة D.J، والسامر القابع فى داخلك يجعلك تهتز بلا ريح وتهمس:

– صفوف مرصوصة ف قلبى، ورجال قدام بعضهم، وإيدين تتطوح وتسقف، وغزالة بترقص فى النص، مواويل مبدورة وإبريق شاى، ومعسل بارد، وعصابة تخربش فى النور، وعيال تتنطط وتبص...

– يابووى متفكرنيش.

دمعات تلك أم أصداف تتدحرج على وجهك المنحوت، لا شىء

يعدل مزاجك سوى مشط البلطى حين يسحب غمازتك على مهل.

من عبأك بفيض الحكايا ودفء المواويل وكرم لا ينتهى، تقسم للواقفين أن يجلسوا على حصيرك الممتد بحجم الكون، تتلاصق الأجساد، وتنبدر الحكايات، وتخرج الأسرار المدفونة فى العب، وأنت تنحنى على (الطبلية) وتصلح مذياعًا ملأته خيوط العناكب، كانت آراؤك فى الحياة مختلفة ومدهشة وكنا نستمع منك عن حكايات البيوت وأصول العائلات وأسباب مجيئها، كنت أعظم الفقراء، بل أفقر العظماء، تتأمل الأشباح والظلال والكائنات التى تتماوج على الحائط، لم تمدد يدك لأحد رغم خلو البيت من الخزين، تعبث فى الراديو القديم وتستخرج من بين سلوكه أصواتًا تميزها وسط عيون ترقبك، ووجوه تميل عليك، وأنفاس دافئة تلسع خدك وأصابع البطاطا التى يفوح شواؤها فى نار الموقد، والحصير فى بيتكم الصغير يمتلئ عن آخره بمريديك.. ومن جاءوا ينفضون هموم اليوم وقسوة الحياة وقلة الحيلة أمام طلبات النسوة وحاجيات البيوت، يضحكون على كل حركة تصدر منك، حتى ولو تثاوبت أو تجشأت أو ناديت على زوجتك صائحًا (يا بت) لتعمل دور شاى، رغم علمك بعدم وجود شاى فى البيت واتفاقك معها على أن تتناوم بالداخل ولاتجىء، ورغم معرفتنا جميعًا بأننا لو نفضونا ألف مرة لن يستخرجوا منا سوى البراغيث المستوطنة بين طيات الملابس وأننا لفظتنا الشوارع والعمارات التى كنا نعمل فيها سويًا، نحمل الطوب وشكائر الأسمنت، ونقبض آخر الأسبوع،

نقضى ليالينا بين شوارع القاهرة متفرجين على واجهات الفاترينات وإعلانات السينما وصور الممثلين، كنا نضحك ملء الكون قبل أن يدفع المقاولون بأيديهم وأرجلهم فى ظهورنا، ونحن نتخبط فى بحور الشوارع ونهرول عائدين حيث لا عمل لنا، والأوناش والخلاطات قد أخذت أماكننا، والبعض منا قد عملوا خدمًا، لماذا رفضت أن تعمل خدامًا هناك، كنت على الأقل ستأكل وتشرب ما تبقى فى الحلل والكؤوس، وتلبس الملابس بعد أن تزيل عنها وسخ الليل، كنت ستعود كما يعود البعض الآن، سيارات تمرق، وعفار يتعالى ووجوه باصة من وراء الزجاج، صناديق البيرة ولفائف البانجو وزجاجات الويسكى، ألا تسمع تلك الأصوات هناك، إنهم يهيئون مكبرات الصوت والدكك ويسلكون الشيشة بالأسياخ المحمية وينفضون الحجارة ويجمعون الحصى والفحم ويفردون الحصر.. حيث الراقصة تتدلى هناك، تتمايل فوق أذرع تمتد، وشيلان تفرد ومحافظ تفتح ومئات الجنيهات تفرش على الصدر المكتنز.

ولكنت شيعت إصبعك جهة الشمال وقلت:

– بأه أنا القمرى أخدم أولاد الـ.....؟

ورحنا نغوص فى رحابة الصمت، ونتسمع همسات الليل وجوقة العازفين هناك تستعد لقرع الطبول فى انتظار الراقصة، وزوجتك النائمة فى الحجرة المجاورة تبرك عليها جمال الكوابيس، تأتينا كلماتها خارقة ثقوب الباب:

«أمانة ياقاضى الشريعة..

يا ناصر دموع الغلابة..

حن علينا بنظرة...

خلاص أكلتنا الديابة»

صورت مكسور بالداخل، يعوى تحت جناح الليل، همهمات ورفسات وتقلبات قلقة تحت لحاف مهترئ، والمرأة معصوبة البطن تتقلب على مسامير الجوع والشكوى.

حيث فى هذه الأيام، والشتاء ينبئ عن نفسه ويغز حراب البرد فى تعاريج الضلوع، سيمر الركب ككل عام، فتموج الأرض وتتزلزل، وتهب نسائم المسك فى فضاءات الشوارع، جمال الليل وحراس المقابر، ضباط وطيور خضر وهوادج، جمال الدقيق وعروق الذهب، حفان الخير وملء الأكف وشبع البطون، والطبول هناك تدق منذ خروجهم من طحا من ضريح الشيخ حسن وأم حناية والكنيسة القديمة، مروراً بالنفق الأرضى ورقبة الجمل الذهبية الممتدة حتى الحمراية ومقابر الكوم الأحمر حيث أرواح (نخن) تحلق فوق التوابيت المنسية، كانوا قد خرجوا من البهنسة فى أول الليل، محاطين بجحافل الخيل يمرون بين أيدى الغلمان وزغاريد النسوة، يزحن الأبواب المواربة عن آخرها، ويعبئن الدور بفيض الخير وينثرن الدرر على صدور البنات مدائن الحناء قريبة والأسباب قادمة تسبقها الزغاريد ودكات أقدام الشباب والشيلان المزهرة من ستختار لبناتها، تلك المرأة التى على شخيرها بالداخل فضحكنا ملء القلوب وأنت تغز إصبعك تجاه باب زوجتك المغلق وتقول:

- اتغطى كويس يابت.

فهدأ الشخير بالداخل وعلت قهقهاتها فوق أسطح البيوت منذ متى يعاودها ذلك الحلم، أكلما اشتد الجوع وقل الوارد وجفت رحم الأرض ووقف أصحابها يمنعون بمخالب من حديد بناتك وهن يلذن بالشقوق بحثًا عن حبة منسية، الليل يسرى هسيسه، ونقيق الضفادع يتنامى فى الترعة القريب، ورؤوسنا تتقارب من رأسك اليمامى، وعيوننا تنظر صوب مذياع تدب فيه مفكاتك القديمة فينطق الأبكم بإذن الله وتتعالى خشخشاته، وتعبث يدك فى مفتاح المحطات..

«مائة مليون جنيه لدعم..»

- علىَّ الطلاق كلكم....

وتسكت وتقلب فى المحطات

- صعبان على جفاك

يصيح أحد الجالسين ضاحكًا

- يوه يا قمرى هو الجابرى صبح على قفاك ولا إيه

تهز رأسك مزهواً وتقول:

- يقدر هو ولا غيره دانا القمرى يا واد

صاحب الراديو لا زال يفلى نفسه على حصيرتكم، وبغال القمل تسرح صوب بناتك بالداخل، يهمس لك مستجديًا:

- والنبى يا قمرى اضبطه على راديو سوا

فتفز إصبعك فى صدره:

– طب وصوت العرب فيها إيه؟

«لامونى اللى غاروا منى.. قالوا لى وايش عاجبك فيها»

الرجل يعلق الراديو فى رقبته ويخرج وصوت «لطفى بوشناق» يدور معه بين تلافيف الدروب، بعد أن يعدك أن يعطيك شيئًا حين الفرج، فتغمز بطرف عينك ويخرق إصبعك الفضاء.

ويتناقصون، وكلما هممت واقفًا تغمزنى وتشد طرف جلبابى، تنحنى رؤوسهم وهم يخرجون من بابك الضيق إلى التواءات الشوارع يشيعهم إصبعك وأنا غارق فى الضحك.

الآن فقط وقد تفرغت لى، ونامت كائنات الليل على ظلالها وسكن المارد هناك بين المقابر، وخبأ ابنه فى عبه وبخ أنفاسه فى رماد الليل، الآن فقط أستطيع أن أسمعك بل تستطيع أن تستخرج فى غفلة عن الناس كل هذه الحكايات عن الأقدمين وحديقتكم التى أصبحت منازل، ورجال الله الذين مشوا فى تلك الدروب، والرجل الغريب الذى تماوت على عتبات البيوت وصحصحته أقدام الرجال وصفعات الأكف، وأبو رجل مسلوخة، والخواجه (مترو) الذى فر تاركًا أرضه والكرباج يلسع ظهره حتى هرب من البلد كلها.

الليل تتدحرج ساعاته نحو الصباح، فتنفخ فى نار الموقد وتخرج إصبع البطاطا، تنفض وتقشر وتناولنى.. ساخنة وشهية

– كفاية شبعت

– طب وحياة سيدى سلامه تاكل الصباع ده.

– أنهى صباع ياقمرى

فتضحك وتقشر وتحشر فى فمى

والصمت يسرح لحظة، أتذكر فيها كل ما قلت، آراؤك فى الحياة والناس، أشياؤك المعلقة على الجدار منذ عشرات السنين، جلبابك المقلم ووجهك المنحوت، ترابيزة من الصفصاف، فأس وعدة حلاق وآلات محارة، ومسطرين بناء وعدة سباك، ومناخل ومطارح وعصى خيرزان وربابة ومزمار.

كانت كائناتك على الجدار تتهامس وتتضاحك وتطلق المواويل.

فتنفلت الضحكات منى فى رحابة الليل، ربما على شخير يعلو بالداخل أو الرجل الذى خرج وقد علق الراديو فى رقبته، أو مواويلك العتيقة وكل هذه الأشياء المعلقة..

ياااه.. كل هذه الأشياء يا قمرى ولا تجد ما تأكله؟

كائنات الطلاء أمام عينى جيوش تتصارع وبيوت تتباعد وفرسان وطيور تجوب الفضاء، نار تبرد وأصابع بطاطا تتناقص وبطن يمتلئ، وسيجارة أخيرة بين إصبعيك تلهف أنفاسها بلوعة المفارق، وليل تنفلت ساعاته فى انتظار صباح تستيقظ فيه تلك الأفواه الجائعة بالداخل ويستحيل شخيرها أصواتًا تتدافع وتسألك عن أصابع البطاطا التى تركوها فى المقود.. فماذا تقول؟

لن تجدى المواويل ولا الحكايات ولا وعد الرجل الذى أخذ مذياعه وتلوى مع الدروب، ولا استحساننا لسماع مواويل، ولا كائناتك المعلقة على الجدار، ولا حلفك «طلاق تلاتة هتفرج»..

ربما تود أن تقول «اجلس معى حتى الصباح» ولكن أى صباح

هذا؟! إنه صباح يوم النشور، وأنت جالس هكذا تراقب حاجياتك المعلقة وتستدعى المواويل، وتبحث يدك عن ربابة علقتها على الجدار منذ سنين، غنيت بها على شاطئ بحر يوسف، صاحبت بها زفاف العرائس، وليالى الذكر والمنشدين وعودة الحجيج وساعات الطهور، عبرت بها بحر يوسف إلى نجوع العرب هناك، حيث الصحراء والحجلة والسامر والمجرودة والكولة والمقامات والسير القديمة والجلوس المستدير على الرمال الناعمة، وإيقاع الدبكة وتطوحات العمائم، وعدت فى الفجر مبللاً، تعبر النهر كقط رافعًا ربابتك فوق تلاطم الموج، وجلست تدفئ نفسك وجلبابك على هذا الوهج، تتأمل عريك يتلوى كمارد موحشًا وفاضحًا أمام أولادك الذين يبصون من ثقوب الباب..

هيئ نفسك الآن للنوم واترك جلبابى، فقد همد الجمر وجاء جمل النوم ليحملنى متثاقلاً صوب بيتى البيعد..

(١) من التراث الشعبى

«صحراء الكلب طعيم»

أتظل صامتًا هكذا؟..

أيها اللائذ بلحن خفى وشىء من أهازيج الرعاة، تشد أوتار الراب على واجهات الحقول، وتتسمع الشجن السارى فى حفيف الأشجار وانطلاق الطير وزهر النوار وانسدال الجفون بين أعواد وسنابل القمح وعجين الحناء، وميل السيسبان بظله على حبال الضفائر وفيض الأحجيات، وهمسات البنات وشارات الأصابع إلى طلع النخيل، ودغدغات الضلوع، ونمنمات حمائم الوشم، والغوايش والبلاستيك، ونداءات ضاربى الودع بين الدروب، واختباء يد الحاوى بين شقوق السطوح ساحبًا ثعبانه يطوحه فى وجه الناس ويدسه فى خرجه، وأبو حجر وقد عرى صدره الأحمر وفرد ذراعه وخبط صدره بعنف المنتقم وجوع المحتاج، وبين لوز يتفتح،

وشمس تبخ صهدها فوق الغيطان، وهمة صاحب المحصول وهو يحث البنات على مواصلة الجنى، أقدام تتدافع وحجور تنتفخ وصدور تمتلئ قطنًا، وصيحات تتعالى وفرح يغمر صاحب الأرض إجولة تنتفخ وأفواه تمطر المدى بالزغاريد وجلسات بالليل على ضوء الكلوبات تحدد المهور وتقرأ الفاتحة.

وأنت بين حنين وأنين وتوق وشوق وهم ووهم، تتصيد الكلمات والإشارات وتعصر الروح، فتقطر الذكريات جلية فى صحاف الذهن، حين تتأمل الصحراء الغربية وراء بحر يوسف، هنالك حيث تبيت الشمس فى بيتها البعيد تتسلى بجدل ضفائرها وترسل عيونًا حمراء فى بحر الغروب، وتشكل السحب جبالاً وبيوتا وقبائل وعيالاً ترحل وتسقط فى حجر المغيب، وأنت مازلت صغيراً تتلصص من وراء الباب لتتأكد أن عينى أبيك مازالتا مغمضتين على حكايات الليل، وشجر جفت أوراقه وخريف يلملم الخضرة فى عباءته ويمتص الرحيق، يعصر الأشياء ويهيلها فجأة بأكف من هواء مباغت ودوامات ريح وأوراق يابسة تتطاير بين الدروب.

تعافر وتزيح حجراً ثقيلاً يسند الباب، تصافح عيناك الصباح البكر وفضاء الشوارع وكلابًا افترشت البقعة الرطبة وتناومت تجرى حيث عيال التراحيل يتجمعون عند الجرار ويتأهبون للقفز فوق المقطورة، من كل الأماكن جاءوا، عيال من البلد تعرفهم، وآخرون من البلاد الأخرى، يعلقون صرر الغذاء فى أكتافهم وتنطلق صيحاتهم عالية.

مرات وهذا الرجل الذى يمسك عصا فى يده يتأملك من عل، ويهشك بطرف عصاه ويقول لك:

– انت لسه صغير.

وينط راكبًا بجوار السائق، ويرتفع هدير الجرار والعفار وصياح العيال مبتعدًا خارج البلدة وأنت واقف تتأمل مواضع أقدامهم وهيئاتهم وصرر الطعام فى أكتافهم، وتنظر حيث بدأ الناس يصحون، والكلاب على حالها نائمة فى البقع الرطبة.

مرات ومرات وأنت تودعهم بعينين يائستين، وتنظر مجيئهم آخر النهار مهدلين ينفضون الطواقى والرؤوس من الرمل ولا يلعبون بل يكتفون بالجلوس على مصاطب الدكاكين بأحداث النهار، يقزقزون اللب ويأكلون براغيث الست ويتغامزون عليك:

– الواد اللى كان عاوز يروح معانا النهارده.

فتدنو بجلبابك المقلم وتقترب جالسًا بجوار أقدامهم.

قالوا إنهم يقفون على أكوام الرمل كى يبدون طولاً، ويفردون صدورهم فى الخلاء، أمام الريح والرمال المتطايرة، والملاحظ يعد الرؤوس ويكتب الأسماء، ثم يبدأون العمل فى جمع الفول السودانى والطماطم أو يعومون فى الترعة التى ترفع المياه من محطة الرفع حتى الصحراء، ينظفون المياه المتدفقة من الطحالب وقصب العفريت وقشر البطيخ، أو ينقلون مواسير المياه من خط إلى خط حيث النباتات تلهث عطشًا وتهز أوراقها كالألسن، والبشاير تلف وتنشر رذاذ الماء فوق الوجوه والنبات، أو يلاحظون البهائم من بعيد

وهى تسرح فى البرسيم الحجازى، حتى لا تزوغ وراء التلال البعيدة وكابلات الضغط العالى وأبراج الكهرباء المكتوب عليها (خطر الموت).

يسمعون حكايات عن الذئاب التى لم يروها أبداً، ولكنهم يعرفون أنها تترصدهم من مكان خفى، ربما فى الحفر المنسية والجهور التى تفضى إلى كهوف، حيث يتجمعون فيها أمماً، ويسحبون إليها صيدهم ويأكلونه فى الظلام بين زمجرة وتمزيق للكائن المستسلم.

ويرون هياكل لحمير وكائنات خرافية، ويحاذرون قزقزة نبات (السكران) الذى يطير العقل ويجمل الرجل الضخم يتنطط وقد احتواه الهوس، يكبش حفان الرمال ويبدر ويقول:

- سكر كتير يا ناس.

ويخلع آخر قطعة من ثيابه أمام الناس والعيال والبنات اللاتى يدارين وجوههن وينظرن من بين الأصابع.

- العيال بعشره والرجل بخمسين.

العيال يحكون أمامك أن الملاحظ يسرق عينى عينك، ويضيف أنفاراً ويكتب أسماء وهمية، ويعلمون أن العيل بخمسين والرجل بجنيه وأنت لا عيل ولا رجل أنت دكش أخضر منسى بين النخيل، تشوطك الريح بين الدروب ونعومة التراب والظلال وأفواه الحجور والجرى وراء القطط وتسلق الجدران ونبش أعشاش الزرازير وقرقشة خبز البتاو والنوم بين الفروع والتبلبط فى مياه الترع والتسكع

بجوار النسوة اللاتى يخبزن وأكل عرائس الخبز وشد ذيول المعيز.

نعم أنت دكش أخضر منسى بين النخيل، هكذا يقلبك الملاحظ فى كفه ويضحك عليك العيال، فتنكمش داخل نفسك وتلعن القصر الذى يحتويك، اليوم قررت أن تجرى وراء الجرار بين العفار والصياح والمطبات، تنط متشبثاً بالمقطورة كمن يتسلق نخلة وتجلس بين العيال، يدارونك بجلابيبهم وتتشمم رائحة البول طازجة على سراويلهم، والجرار ينطلق إلى الصحراء أمامك على البعد تمتد التلال وتتناثر كالقباب. وترى أبراج الضغط العالى واقفة كالمسلات بعيدة ومهيبة. والمزارع حد الشوف، والبهائم بلا مريض تسرح على حالها فى البرسيم الحجازى، كنت فرحًا وأنت ترى أشياء لأول مرة، هكذا كانت مختلفة تماماً عما حكاه العيال، كان شجر (الوحواح) يملأ المكان أزيزاً ورهبة، وعيال هناك يطلقون عليكم وابلاً من الأحجار صائبة وقاسية ومفجرة للألم والجرح، وأنتم تتماوجون فوق بعضكم، تتحسسون الرؤوس والطواقى وتصرخون من ألم الحجارة، حتى يغيب الجرار بعيداً.

كان العيال يتقنفذون صفوفًا على جانبى الطريق، يتبرزون بطريقة جماعية وحديث لا ينقطع ونظر إلى العورات وما جادت به المؤخرات من فضلات لب بطيخ أسود، وقد ملأوا حجورهم بحجارة جهزوها بالليل وانتظروا مروركم الصباحى، وحين يمر الجرار من بينهم يقومون ويقذفونكم بالحجارة ويهتفون:

- يا فلاح ملعون بوك، تشيل سباخ ولا نبعوك.

ثم يعودون متقنفذين تجود مؤخراتهم بالمزيد.

وحين تمضون بعيداً، ترفعون رؤوسكم من بطن المقطورة،

كانت الترعة تختفى بعد محطة الرفع وتظهر هناك وتتجه شمالاً تسقى الجانب الشرقى بالعبارة وبوابات تفتح ساعة اللزوم، تلال وراء تلال وطريق مرصوف يتلوى ويدخل إلى القرية، حيث المسجد والمنازل المتشابهة التى يسكنها المهاجرون من مدن القناة وعمال الرى، واستراحة الموظفين.

هنا توقف الجرار وانطلقت الأقدام تتدافع وتتراص فى انتظار الملاحظ كى يأتى ويعد.

وكومت على عجل كومة رمل عالية ووقفت عليها، كانت تنهار تحت قدميك وتوشك أن تتساوى بالأرض، وأنت تتطاول فى الفراغ كشجرة سيسبان، ترفع رأسك فى مستوى الرؤوس فيتمدد جسدك الانسيابى كانت طاقيتك دون العيال طويلة، وأنت تعافر حتى لا تنزلق قدماك أسفل الكومة، واليد تقترب وتعد، وقلبك يتنطط فى صدرك، لحظات وتمر تلك اليد على رأسك، كنت تحاذر النظر فى هاتين العينين الضيقتين وهما تتفحصان الوجوه، تخشى أن يرفضك ويتركك هنا مهملاً ووحيداً حين يذهبون إلى أعمالهم ويتركونك لذئاب ستأتى إلى هذا المكان، وتعود آخر النهار مصحوبًا بالحسرة وضياع يوم وعصا أب تمزق شفيف الجسد، العد يتزايد والأولاد ينطلقون، واليد تقترب وتحط على رأسك، خفيفة وثقيلة، قاسية وحنون، نمل يسرى تحت جلدك، والبول يوشك أن يتدفق فجأة على

سروالك، إنه يمرر يده كالغمام ولبد القطن ويضيفك لتصبح عدداً ضمن من سيعمل، أنت لا تدرى ماذا ستعمل، ولا تعرف كيف تكون الشمس هنا قاسية بعد ساعات قليلة، وكيف أن هؤلاء الذين تعرفهم وتسمع حكاياتهم، وتحفظ ملامحهم، حين يبدأ العمل لا يعرفون بعضهم، حتى الأولاد الذين تلعب معهم سيتفرقون على امتداد البصر كل فى جهة، ربما لا ترى أشباحهم أو تسمع أصواتك، أنت فقط تستعيد وعيك الآن وتفرش ابتسامتك ملء الصحراء، وتقرص أقرب واحد إليك فرحًا، وتحتضن الضوء والظل والهواء والريح والشجر المتباعد والطريق المتلوى وسائق الجرار، وبنات التراحيل اللاتى جئن من البلاد المجاورة ورأينك لأول مرة، واتجهت إشاراتهن إليك هازئة وضاحكة ومرحبة، لا تعرف أنهن سيتخذنك لتسلية وقت الظهيرة، حيث يتركن شعورهن ليدك تستخرج قوافل القمل ويوجهن يدك نحو نبق الصدور وتكتشف لأول مرة أماكن خفية صالحة للحكى والضحك والدهشة والتأمل وبعث الروح فى ثنايا جسدك وتفجير الرغبة العاجزة أمام التأوهات والقهقهات وهن يجذبن سروالك.

عيون تبص وأفواه تتلمظ وصوت الملاحظ ينادى لتكملة العمل بعد الظهيرة. تعلمت منهن كيف تضع أسبات الخوص الصغيرة وعرائس الصلصال. وأكلت معهن الجبن وقرشت الكشك اليابس وقراطيس اللب.

كان الرفاق يتفرقون من حولك ويذوبون بين تعاريج الرمال والزرع.

كانوا عارفين لأعمالهم، حيث ينبشون فى أماكن متفرقة فى الرمل ويستخرجون الشقارف والحشات، وينطلقون مباشرة إلى خطوط المياه وحش البرسيم ولف تقاوى الفول بالمبيدات وجمع الطماطم الناضجة.

وأنت تجرى وراء الأقدام هنا وهناك، يضحكون عليك حين يطاردك عجل الطلوقة، يحك بقرنيه الرمال ويلاحق أقدامك الفارة، تنكفئ وتعتدل وتتسلق أقرب شجرة، تتأمل القرنين المنتصبين والعينين الخاليتين من الشفقة، والرفاق على البعد يستندون على حافة الخوف ويحاذرون رجوع العملاق، تتعالى قهقهاتهم وأنت تلتصق بالشجرة كخفاش، علمك البستان أن تراقب الأشياء من عل، وأن تتمهل حتى تمسك فرخ اليمام، الآن أنت المحاصر، وعيناه غبيتان تتلفتان حيث اختبأت والقرنان يحكان فى لحاء الشجرة ويكحتان بغل أذلى ورأس يابس، الجزع يتطوح والأوراق تتساقط، الصبر ينفد والعيال تبدو وجوههم صفراء وخائفة وجادة، والعجل المكتنز بارك على صدر الخلاء، والحوافر تهيل الرمال بغيظ، فيترجرج اللحم الغزير، وأنت صرت فرعًا من الشجرة تتطوح معها وتثبت فيها وتدخل نفسك بين أوراقها ويبزغ رأسك متلفتًا كفأر الأحجيات، تراقب عيون العيال المتلهفين عليك، وذلك العملاق الذى يتراجع يائسًا يحك برأسه سنارة المدى ويطارد أقرب أنثى، وأنت لابد أعلى الشجرة تتأمل الصحراء وتكتشف أشياء لم يرها العيال، كأبراج المراقبة وخيام الجنود وجمال تسرح بين التلال

البعيدة وفئران جبلية تبص من الشقوق والعيال يقتربون ويرفعون وجوههم وينادون عليك:

– انزل، العجل، مشى خلاص.

أكنت تهوى أم تنط أم تتقافز بين الفروع وأنت ترتمى بين أحضانهم وضحكاتهم العالية، أصبحت عضواً جديداً، يسألون عنك وينتظرون مجيئك ويلتفون حول حكاياتك ويفرح أبوك آخر الأسبوع بجنيهاتك القليلة، يشترى نصف كيلو لحم من عبد الغنى الجزار، وتذبح أمك دجاجة من البيت ويعطيك أبوك منابك قبلهم ويكوم أمامك الصدر وقطعة لحم حمراء والكبدة ورأس الدجاجة التى تحبها، ويقول لإخوتك الذين يتغامزون:

– أخوكم شقيان، خليه ياكل.

سنوات والأشجار من حولك تتزايد والوجه الأصفر يكتسى خضرة، وأيديكم الصغيرة تسوى الرمال وتسقى الزروع وتضيف مساحات خضراء، وعجل الطلوقة يتهدل لحمه ويسقط مرارًا من فوق البهيمة ويبيعونه والعجول التى كبرت، وتراه مستسلمًا فى أيدى من يسحبونه حيث سوق الثلاثاء فى مطاى، والعجل الصغير الذى كان يداعبكم تجرون خلفه ويجرى خلفكم ويهز ذيله الصغير، بات فتيًا وقرناه النابتان يشقان الفضاء كحربتين وأصبح لا يحب الهزار، حيث جرى خلف أحدكم أراد أن يمزح معه ويشد ذيله، كان سريعًا وقويًا ومدهشاً حيث قفز فى الهواء كطائر خرافى ولاحق الجسد الهارب، لحظات، وكان يدحرجه على الرمال كجزع

شجرة ويدهس براسه اليابس فى الضلوع الطرية حتى همد الصراخ واصفر الوجه ووقف الثور لحظات يرفع قرنيه ويضرب بهما الهواء ويعلن أمام ارتعاشة أجسادكم واحتمائكم بسور المزرعة العالى.. إنه لم يعد صغيراً وإن عليكم أن تتعاملوا معه باحترام وحذر، ثم استدار وقفز فوق أقرب بهيمة وأولج فيها جحيمة.

تتجدد وجوه الأشجار والنباتات والبهائم، ويأتى عيال صغار يقفون على كومات من الرمل وينضمون ساعات الظهيرة إلى جموع البنات هناك تحت شجرات الزيتون البعيدة.

وبنات تتغين واحدة بعد الأخرى فتعلم أنهن تزوجن وأنك كنت - بلادراية - سببا فى سرعة نضجهن، ورأيت الموظفين وكاتبى الساركى وملاحظ الأنفار يغادرون المكان كان الصباح باهتاً والأشياء على غير حالها، وأنت تعدلون أوضاع الطواقى وتمسحون آثار الجراح التى سببتها الحجارة المنطلقة من أيدى العيال، كان الموظفون يلملمون حاجاتهم من الاستراحة ويضعونها فى مقطورة الجرار، ويتحدثون مع الملاحظ والسائق الذى كان يقلب كفيه ويبدو وجهه الضاحك أكثر تجهما وحزناً، قالوا (الخصخصة) وما عرفتم معنى الكلام، سوى أن العيال الذين كوموا الرمل أسفل أقدامهم كانوا مازالوا واقفين، يرفعون أنفسهم فى محيط الفراغ وينظرون بعيون زائغة كالطير الغريب، كان الوقت يمر عليهم ثقيلاً وأكوام الرمل من تحتهم تنهار فى بطء.

وصوت الملاحظ يرتفع:

- يالله يا عيال.. خربت.

وراح العيال يلملمون عرائس الصلصال وأشياءهم المدفونة تحت الرمال، وركب الكل فى المقطورة، كان الموظفون متقرفصين وقد خبأوا رؤوسهم فى عبهم واندفعت أنفاسهم الساخنة فى فضاء الحجور، كانوا يتبادلون الحديث جافًا ومبتوراً، قالوا إنهم عرضوا على الموظف إما المكافأة التى لا تسقى ظمأ أو تؤمن مستقبلاً، أو خمسة أفدنة هناك بعد أبراج الضغط العالى حيث لا تصل المياه ولا يجود المطر، وأن الأرض التى تشرب بالعبارة أخذها ناس آخرون، أحاطوها بالأسوار وحجبوا عنها سهام العيون، وأن الخريجين الذين جاءوا من آخر الدنيا مدفوعين بفيض الأغانى والوعود واشتروا الفسائل وزرعوها، وانتظروا الماء الذى لم يأت، ودارت الحوارات الميتة ما بينهم وبين موظفى الرى الذين يقسمون أن محطات الرفع تعمل بكامل طاقاتها وأن المياه تندفع أمام العيون، وأن البوابات التى تفتح ليل نهار فى أرض البهوات هى التى تسترق قطرات المياه وتتسبب فى عدم مجيئها إلى أراضى الخريجين.

وعندما يتنطط الخريجون بأجسامهم الهزيلة على حصير الرمال ويهددون بإبلاغ الوزارة، ينطلق صوت فنى المحطة من بين أزيز لوحة التشغيل والمواسير والمياه المندفعة ويقول:

- أعلى ما فى خيلكم .. إيه... مقدرش ع الحمار ولا إيه؟

فيعودون، يغطسون ويقبون فى بحار الرمال ويقفون على حدود أرضهم حيث الفسائل تحنى رقابها كجيش مهزوم، ويبدو المكان

أكثر وحشة وضيقًا، ورجال آخرون يبصون من خلف التلال فى انتظار لحظة يترنح فيها الخريجون هامدون يئنون على حصير الرمال وتلتقط أفواههم العطشى ملوحة الدمع ومرارة الشكوى، فتقرب السيارات وتفتح المحافظ..

– الفدان بألف جنيه والبيت بألف.

ويتأملون الملاك الجدد الباركين على صدر الكون، عيون مشقوقة فى جلدنا شق وخناجر تبرز من تحت العمائم وفوهات مسدسات وأفواه مفتوحة كالكهوف.

وكأن الأهل فى البلاد البعيدة قد ماتوا، والدنيا أصبحت صحراء جاثمة على الكون، أهو جحيم الحمى أم لحظة الاحتضار والهمهمات والعيون الزائغة والفسائل التى انكمشت كعجوز واستسلمت لدحرجة الرياح.

– قلتم إيه يا أغراب؟

الأيدى تمتد بذل الحاجة وطول الطريق وجفاف الريق وموت الحلم وتبدى الكون صحراء لانهاية لأطرافها، وتوقيع الأيدى المحمومة على العقود الجاهزة والارتماء فى وسع السجن والألم اللذيذ، وأنت ترى الحديث من حولك قد انتهى وزحف الصمت والتهم الزغاريد وأغانى البنات، وارتفع هدير الجرار عاليًا وهو يشق طريق العودة، حيث العيال ينبتون فجأة من بين التلال وظلام الهيش والبيوت الطينية وخصاص البوص، يحاصرون الجرار ويتبعونه بأقدام حافية وأياد تتطوح عل مدد الشوف وتطلق الحجارة صوب

رؤوسكم المستسلمة.

آخر مرة ذهبت فيها إلى الصحراء كان من أجل طحالب تصيد بها الأسماك. كم من مرة أوقفتك هواية الصيد فى مشاكل لا تنتهى، منذ أن كنت صغيرًا تتابع الصياد العجوز الذى يأتى من بعيد يصيد الأسماك بسنارته الجريد، يبرم الطعم بيده ويقول أنه خليط من عجين القمح وزبل القردان، ينخله من شوك الثعابين والأشياء اليابسة ويدفنه أيامًا فى كيس من القماش، كنت تشم رائحة عطنة ونفاذة وكان يتلفت حوله حين يطعم سنارته ويسقطها بحرفة بين الحشائش، تغوص الغمازة تحت الماء والرجل صامت كحجر، ثم يجذب فجأة ويعافر كمن يحارب شبحًا خفيًا ويدًا عفية تشده إلى أسفل، تخبطات وتموجات ورأس أسود مفلطح ومخيف، عينان بارزتان وشارب كمجدافين وفم مفتوح كالكهف وذيل على البعد يخبط ويغيب تحت الماء، والعجوز يرشح عرقًا من جميع الجوانب، يهمهم ويدعو ويلهث ويجذب بيدين تقبضان بآخر حيلة على صيد سيفلت، ويرفع بارتعاشة وإصرار، سنارة الماء تنفرج عن ذلك الكائن العجيب، قرموط بحجم الرجل يفتح فمه ويتلوى على جانب الشاطئ.

بخبرة السنين وبقايا عافية وخارطة عروق زرقاء تتشابك على صفحة الذراعين وصدر ممتلئ بالشعر الأبيض ويزحزحه بعيدًا عن الشاطئ، فيلف ويدور ويطرطش الطمى بذيله ويتجه برأسه المفلطح نحو الماء، فيقابله الجلباب المهترئ والحجر والواسع والشوكة الملتوية

والشوال العميق، وما يزال الكائن يعافر فى بطن الشوال، يغز رأسه من أماكن متعددة، يوسع ثقوبًا ويخرج شاربه ويمخر، فيعاود العجوز لملمة الحافة ويربط بإحكام ويأخذ نفسًا عميقًا بارتداد الروح وصفاء النفس وانفراج الهم وانفتاح الفم الخالى من الأسنان عن بسمة طفل.

وأنت غارق فى بحار دهشتك، يزحف إصبعك رغمًا عنك ويحط تحت مؤخرة العجوز فيجفل:

– إيه ده..

فتجذب يدك وتجرى مشحونًا بمشهد لن تنساه، والدهشة التى كست وجه العجوز وهو يتأمل ظهرك الصغير وإصبعك المنتصب، وأنت تمضى على الشاطئ، تتأمل صفحة الماء التى تراها كل يوم، وتتساءل كيف تستطيع أن تخفى تحتها تلك الكائنات الضخمة، عندئذ قررت أن تصنع سنارة وتعود، تضعها حيث كان العجوز هنا ومشى تاركًا بقايا سجائر لف وآثارا لقدميه وشاطئها شهد معركة حامية وفرحة تكسو الوجه المنحوت.

كم من معركة دارت بينك وبين أصحاب الغيطان التى تجاور الشاطئ، وأنت تبحث عن طعام لسنارتك، تغوص باصبعك فى طمى الشاطئ وتسلت الديدان الحمراء الطويلة، يقولون لك لا تحفر هنا، أنت تعين النهر علينا، وتكبش جلف الطين وتوسع بطن النهر وتنقض ظهر الأرض، وتزلزل جذور الصفصاف المزروع ليسند تلك الجروف.

وأنت تلعن أولاد الأرامل وأنصاف القوالب التى قامت وأصبح لهؤلاء الأجلاف أرضًا وحيازات وصوت يرتفع على أولاد الأصول.

كم من مرة لطخوا بالطمى وجهك، فاستحلت كائنًا غريبًا تبص بعينين مدفونتين فى جرة زرقاء، وكم من مرة تفاجأ بالطوب المنهمر عليك من فوق الشاطئ، يرتطم بظهرك ورأسك ويديك الغاطستين فى الطين، وأنت تدفع وتتأرجح وتسحبك المياه فتغوص وتقب وتعوم وتلملم جلبابك الذى يكبل انسياب جسدك ويرميك طعمًا للقراميط، تشق البحر كقط مربوط بحجر، وتتشبث بأعشاب الشاطئ البعيد مرتميًا بين الأعشاب والفئران والثعابين المتربصة، تعاتب النهر بعينين يائستين وطرحه الذى غير معالم الأشياء، وتحاذر العودة من الدروب خشية الفضيحة وسخرية الأهل والأصوات التى تنطلق من حولك هازئة:

– معاك كيلو سمك؟

فتنتظر حتى يزحف مارد الظلام على الكائنات، عندئذ تعود لتلوذ بالموقد وتصطلى بالذكريات والتأوهات والمواويل الحزينة قال لك الصيادون الذين يأتون من المدينة إن الطحالب الخضراء طعم جيد لأسماك البلطى ورأيتهم يفردون أعواد السنانير ويعلقون فيها الطحلب فيعود على سطح الماء كشمسية مفتوحة ثم يختفى، لحظات ويجذبون أفراخ البلطى من جنبات الشواطئ والحشائش والأحجار الفاطسة، وأنت تراقبهم فى دهشة، كل يوم أنت هنا بسنارتك على النهر ولا ترجع إلا بالأسماك الصغيرة التى تعانى

زوجتك من صعوبة تنظيفها، وتضحك يا قمرى، لأن هذه الطحالب تكسو مؤخرات الأزير والجرار والترع والقنوات حيث تنط فيها الضفادع وتخترق نسيجها الأخضر جربتها فلم تفلح، وتناثرت قطعا وخيوطًا وعامت مع الماء وتركت السنارة لامعة بلا طعم.

قالوا لك إن الطحالب الجيدة فى الصحراء الغربية، حيث محطات الرفع تضخ المياه فى القنوات المرصوفة وبرودة الرمال، وتذكرت ذلك جيداً، حين كنتم تنزلون تلك الترعة وتزيحون بصدوركم قصب العفريت والطحالب والأعشاب والطيور الميتة، وتطهرون المجرى فيندفع الماء سخيًا ورائقًا وعذبًا، وتكمل النهار سباحة، تغطس وتعوم وتضرب كسمكة وترفع إصبعك وتنادى:

– أنا فين؟

وتغيب تحت الماء، الأفواه على الشاطئين تصيح والأيدى تشير، ولكن إصبعك يخرج من مكان بعيد ويشق الماد ويتجه صوب الوجوه الضاحكة، ركبت المركب وعبرت البحر وبدأت رحلة الصعود، ورأيت حصير الملح يكسو الزرض التى كان يزرعها البحارة بطيخًا فى أخاديد عميقة، حين كانوا يأتون بوجوههم المشبعة بالحمرة وطواقيهم الطويلة، وفى موسم البطيخ تتراص عربات النقل على طول الطريق، يحملونه إلى المحافظات البعيدة، كان شيئًا مدهشًا لأهل هذه البلاد هنا الذين اكتفوا بالفرجة وجمع لب البطيخ للبحارة وتحميل السيارات وتعمد إسقاط البطيخ لأكل قلوبه الحمراء، الآن لا شىء سوى حصير الملح يحبو على قباب

السرائب، ونخيل متباعد ينطح الريح برؤوس عجفاء، وطيور سود تبحث عن ديدان بين الشقوق، وعيال يقاومون رغبة فى التزحلق على جبال الملح، قالوا إن الحكومة عندما استصلحت أرض الصحراء العالية زحف الملح إلى أسفل كالمشيب يلتهم الأراضى الخصبة ويمحو جمال الملامح، وأنت تبعثر نظراتك على الأشياء، سيارات تمر وجرارات وعيال يلعبون الكرة وينقلون سيقانهم الرفيعة بخفة فوق الرمال.

كانت ثمة بيوت تغيرت معالمها وارتفعت طوابقها وأزيلت عشش البوص وأقيم مكانها دكاكين واستراحات للقادمين من الصحراء الغربية، وهنا حيث حط قدماك لأول مرة على نعومة الرمال وقفت تبعثر بصرك غلى غرابة الملامح، أسوار تحجب خلفها أشجار زيتون وفيلات وأبوابًا يلج منها الماء فى رحم الأرض مندفعًا من الترعة القريبة، أغنام عجفاء تكحت الرمال بحثًا عن عشب أخضر، تطاردها عصى الملاك فتفر عائدة تحتمى بأصحابها والظلال، استراحات الموظفين استحالت زرائب للمواشى، وبيوت المهجرين تركها أصحابها وعادوا إلى مواطنهم الأصلية واستولى عليها الأهالى.

مازال غناء البنات يشدو فى أذنيك، هنا كنت تجرى خلفهن وتشد حبال الضفائر بين صرخات وضحكات وجرى على نعومة الرمال، حيث كان المدى فسيحًا، وعجل الطلوقة يجرى خلفك وأن تحتمى بفروع الأشجار وتستجير بصحراء مد البصر، صوت الجرار

وآثار الأقدام وأغانى الرفاق، عيون الملاحظ وخطوط المياه وكومة الرمل تحت قدميك وأشياء تحوم فى ربوع الذاكرة، وما جئت من أجله ها هو أمام عينيك، طحالب تمتد كخيوط الحرير بين قنوات المياه والأحجار اللامعة، تعلو وتنخفض وتفرش على وجه الماء حصيراً أخضر، وأنت تحلم بوجبة سمك رائعة تعيد البسمة التى هجرت البيت حيث زوجتك، وتفرغ أمشاط البلطى فى الطشت وتغلق الباب وتنادى بناتك حيث التنظيف والتحمير وجلف اللحم الطرى الأبيض وليلة ستكون رائعة تنسيك ما ألم بك من حنين للرفاق وحزن على تلك الأشياء التى تغيرت معالمها.

بجدران الأسوار يحك الماء وتنمو الطحالب، وأصحاب المزارع هنا يخافون الغريب، يترصدونه بآلاف الأعين والبنادق، قالوا لهم إن الفلاحين سيستعيدون الأرض فناموا بعين صاحية، وعرضوا أجسادهم وصدورهم لطلقات التخويف التى تمر فوق الرؤوس ومزقوا أجسادهم بالمطاوى واتهموا الفلاحين، واستدعوا أقاربهم من كل الجهات، فجاءوا كالنمل ونصبوا خيامهم وأكلوا الماعز والفئران الجبلية وأطلقوا النار فى عتمة الليل فسمع من لم يسمع.

(وضع يد) آه لو كنت هنا لو وضعت يدك أنت تمنى نفسك وما عساها يدك أن تحوز وأنت بارك كالكبش تعطى مؤخرتك للخلاء والعصى المنهمرة ودحرجات الأحذية، إن إصبعك سيغوص فى الرمال وتنزع يدك عن حفرة تلتئم وملاك يضحكون، ويرسلون خلفك كلابهم لأبعد نقطة ممكنة.

أفكار تهجم عليك فتعكر الصفو وتخدر الجسم وتخشى حتى من تواردها داخلك، فتغلق عليها آلاف الأبواب وأنت ترى هؤلاء العماليق يحاصرون المكان هم أصحاب الأرض وواضعو اليد ومعلقو البنادق فى الأكتاف، يتشممون رائحة الغريب فيطلقون خلفه كلابهم قوية ووثابة، تمزق وجه الرمال بعشرات المخالب وتنطلق حيث اللحم الطرى والجسد المستسلم، أجساد كالنخيل وبنادق مصوبة إليك وأنت منحن كطائر العنز، تلملم خيوط الطحالب بفرحة من وجد ضالته، كان الضوء حولك يبهت والشمس اختفت فجأة ودائرة لحم من حولك تنكفئ عليك كقبة، عشرات العمائم والرؤوس العارية والعيون النارية والوجوه الخالية من الشفقة، وكلاب تبص من بين الأقدام وتبرز أنيابها، والسؤال يخرج منهم قوياً وخشناً:

– بتعمل إيه هنا يا واكل ناسك؟

وأنت تحلف لهم بكل اللهجات بأنك أتيت هنا من أجل الطحالب، وتحلف مهما تحلف، تكبش حفان الرمال وتهيل على رأسك وتنهنه كالأطفال، والكلاب من حولك يزومون، أفواه ككهوف وأنياب كمناجل حادة، وصدور تنهج وأقدام تستعد لاختراق الهواء.

قلت لهم عن اسمك وبلدك

قالوا كلهم يقولون ذلك، وفى اليوم التالى نرى سحابة من عفار تطلع من الوادى وتقترب، هدير وساريات وجنود وبنادق وطلقات

تنبدر فوق الرؤوس وسيارات ومن ورائهم جحافل الفلاحين بفؤوسهم وطواقيهم الباهتة يتجهون صوب أرضنا.

همست فى سرك: ما هى بأرضكم، إنها أرضنا، نحن الذين قمنا فى الصباحات البعيدة وجئنا من البلاد المرمية هناك على شاطئ بحر يوسف. حفرنا القنوات وسوينا الرمال وغرسنا الفسائل من أجل قروش قليلة وحفان الفول وأباط البرسيم لعنزاتنا وقطرات جاز تشعل فتيل المصباح، حتى الصباح ساهرون نقزقز أحداث النهار على الجالسين، وحين يطرق الضوء أبوابنا بكف البنفسج نقوم والبسمة ملء الوجوه، والأقدام وثابة إلى هذه الأرض، من أنتم؟ من أين جئتم، ملامحكم القديمة محفورة فى الذاكرة، حين كنا نمر عليكم وأنتم متقنفذون على جنبات الطريق تتبرزون بطريقة جماعية وتمطرونا بوابل الحجارة والشتائم.

هذه الأرض لنا من ساعة أن كان إخناتون يرسل جدى بحفان الحنطة ودلاء الماء وكان يزيح النهر بكفيه فيغمر تلك الأرض ماء ملء الصحارى والأخاديد، إنها رمال حمراء كانت مزروعة منذ آلاف السنين، كشفنا عنها الغطاء وأزحنا عنها رديم الرياح، وحروفنا المبعثرات على واجهات التلال تستحيل حقول حنطة وأسماء بلاد تناثرت على شاطئ النهر، والأرض كانت لنا منذ أن فرد إخناتون قدميه على الشاطئين وسند الجبلين بذراعيه ومرت من بين قدميه المراكب المقدسة، وأعطى جدى فأسًا وقمحًا وقال ابذر، فحطمت عصافير الخلاء وضحكت بنات الأرض، وقرت ثيران الليل بعد طول

رحيل، هذه صخور أم جبال أم جمال أم ذهب، وأنت تستدعى الكلام ودفق المواويل وتثبت روحًا تتأرجح وتهمس فى خواء الجسد:

هذه الأسوار تحيط أراضى زرعتها أقدامنا المسرعة وجلجلة الضحكات وفرش المناديل ساعة الظهيرة نجمع عليها فتات الطعام والنكات والغمزات والخوف من أن تغيب الشمس ولا نشبع من بعضنا.

سيارات تتهادى ووجوه تقابلها آلاف التحايا، وأنت ما زلت تسأل نفسك: لماذا لم نرهم من قبل، لماذا لم يحك الملاحظ لنا عنهم، لقد قال إن هذه الأرض قسمت ونحن لن نعود، ولكنه لم يقل من أخذها، وبكم، ولماذا؟

إن الأسئلة تتشعب داخلك كأشجار السنط وإصبعك يوشك أن ينطلق فجأة إلى الوجوه وأنت ما زلت تحلف لهم.. هؤلاء الذين أحاطوا بك وأوشكوا أن يطلقوا الكلاب عليك.

ماذا تنتظر، أن تلتهمك تلك الأفواه وتختفى دماؤك تحت الرمال، ماعساك أن تفعل وهذه الوجوه التى قدت من صخر تتأملك فى ريبة وأنت تتكرر اسمك وبلدك.

وهم يرددون نفس العبارة:

- كلهم يقولون ذلك.

من هم الذين يقولون ذلك، وهل جاء ناس هنا قبلك، هل قامت معارك بين الفلاحين وهؤلاء هل زحف الفلاحون بفؤوسهم وعصيهم وأكمامهم الطويلة وأذرعهم الرفيعة، يحثون ضميرهم الهزيلة على

الصعود البطىء رافعين عصيهم والفؤوس وصرخة المدد بأبو عجل وأبوعجور والشيخ إسماعيل أبو قربة وعلى الجندى وأحمد المضيوى «كيف كانت المواجهة بين حمير تصعد وأنفاس لاهثة وعصى تتطوح وأجساد تترنح هنا عند المفارق حيث قابلهم وابل من الرصاص والخناجر والجمال والحفر المغطاة بالأعشاب، هل كانوا يصيدونهم ويرمونهم وراء هذه الأسوار وينتزعون الخصى ويستعملونهم فى الزراعة حتى الموت، أم أن الفلاحين استطاعوا السيطرة فى بادئ الأمر، وانهمرت عصيهم فوق الرؤوس بحجم الغضب واستلاب الأرض وجوع العيال، بين تهشيم عظام وصراخ وجمال تجفل هاربة وفؤوس تحطم الأسوار العالية فتكشف ما وراءها وتوشك أن تقتحم، لولا أسطول السيارات والطلقات ووجوه الأفندية الباصة من وراء الزجاج وجيش المحامين والأتباع الذين أجبروا الفلاحين على التراجع وسط إيقاع الدبكة والتصفيق المنتظم والتراص على الجانبين وهم يرددون:

– يا فلاح ملعون بوك، تشيل سباخ ولا نبعوك.

فيتكئ الملاك الجدد على ليونة المقاعد، ويتابعون مشهد الفلاحين المتدحرجين حتى الوادى، ويرسمون مشهد الأجسام التى تتضاءل هناك وتتجه صوب القرى البعيدة، ويلملمون خيوط الملامح والضوء الباهت والشمس الراحلة ويطبعونها على لوحاتهم، ويتسمعون إيقاع الدبكة وصوت العربات الشارخ صمت المكان، فيقررون صياغة التراث من جديد.

وأنت مازلت تسأل فى فضاء نفسك: هل فعل الفلاحون ذلك أم اكتفوا بالصمت وملاحظة معيزهم وهى تروح وتجىء على الطريق المتلوى وتكحت وجه الرمال اليابسة.

كانوا من حولك يتزايدون لهجات ممطوطة وعماليق خارجون لتوهم من ثنايا الصخور ينفضون غبار الغفلة ويجأرون بشتى اللغات، كنت تتمنى ألا تأتى إلى هنا أصلاً، تلعن السمك والطحالب وصيادى المدينة، وتنتظر موتًا محققًا، ولكن لا تعرف كيف يكون، عشرات البنادق والأيدى وأفواه الكلاب المفتوحة تتجه إليك وهم يتداولون الأمر بين غمزات أعين وتطوحات عمائم وضحكات عالية، وإشارة إلى كلب بحجم البغل كان واقفًا منفردًا، هكذا يبدو مهيبًا وجبهة مستقلة، يتابع الموقع بوجه إنسان.

قالوا لك سندعك تجرى حتى نهاية التل، لن نطلق هذا الكلب خلفك حتى يغيب ظلك وتبدو شبحًا بعيدًا.

وأنت تجرى قدر الاستطاعة والخلاص وارتداد الروح وحيلة الجسد الضعيف، تنظر خلفك وتخلع قدميك من الرمل بصعوبة تتلفت حيث لا زوال لشجرة أو حاجة وبساط الرمل الناعم يمتد إلى ما لا نهاية، وهم من ورائك باتوا نقاطًا صغيرة وبعيدة يطوح الهواء جلابيبهم وأطراف العمائم، والكلاب تبدو أرانب متناثرة وأنت تلهث وتجذب خيط الحياة ورائحة الوادى فوق أشجاره والنخيل، تنظر خلفك تنكفئ وتعتدل وتعافر وتسبح بقدمين متعبتين فى بحر الرمال، تغوص فى اللبد الثقيل والنعومة القاسية وثقب فجأة فى

أماكن متفرقة، نفس الرمال والصحراء والمسافة، وأنت تؤكد لنفسك شيئًا واحدًا، أنك تنطلق عكس الشمس التى مالت صوب الغروب هكذا تحدد وجهتك وانطلاقك، فقط أن تجعل الشمس فى ظهرك وتقفز فوق ظل يسبقك، تقاوم الموت بذراعين منهكتين وتحاذر شباكًا وحفرًا وجحورًا وعظامًا وثعابين تزحف على جانبها وتنط فجأة والصوت الآمر من ورائك يصرخ:

– وراه يا طعيم.

والكلب الذى كان منفردًا يبص عليك بعينى رجل يستدير الآن وينطلق بحجم الغيظ والرغبة فى التهام الجسد المتعب، يشرخ جدار الخلاء بصدر كالقارب، كان صغيرًا وهو يخرج من قرص الشمس الساقطة وراء التلال، وليد النار والقسوة والاحمرار وسحب الغروب وجحيم الجبل، يتقافز صوبك كقط ويكبر كلما اقترب، والذى كان قطًا بعيدًا صار كلبا وأسدًا ووحشًا خرافيًا جاء من وراء الأزمنة المنسية، أقدامه تنفرد بحجم الكون وتحط ثقيلة على بساط الرمل، فتطقطق الأشجار والعظام والأعشاب الجافة وقطع الصخر، حط قدميه الأماميتين على كتفيك فانكفأت على وجهك غائصًا فى الرمال، فتح فمه على محيط رأسك ثم وقف صامتًا، لا هو يأكل أو يسكت، وروحك تتأرجح وتوشك أن تسلخ، وأنت تنتظر أن تطبق هذه الأنياب رأسك، حادة وغائصة ومغيبة للوعى والذكريات.

خدر يحتويك وأنت تنظر عن قرب حيث اللسان كمطرحة واللعاب يتساقط لزجًا على وجهك، كان شعره كثيفا وموحشًا

كغابة، وأسراب القمل ترعى فى جذور الشعر، والذباب الأسود يتطاير ويحط على وجهك لاسعاً وملتصقًا وعنيداً، والبطن الممتد بحجم الكون مكحوتًا فى أماكن متفرقة، وكان عضوه يبدو مخيفًا داخل جراب غليظ، الأرجل الأربع فوقك والجسد الساخن يغطيك والعينيان تبصان من على الأشياء.

ماذا يريد ذلك الكائن الخرافى، إنه يدنو منك بقسوة، يتهدل جسمك ويغير أنينك الخافت بين فحيحه أنفاسه، مالك لا تقوى على الحركة أو الصراخ، لماذا لم يطبق فكيه على رأسك حتى الآن، ماذا يريد أن يفعل، إنه يقترب فتحس الشعر الطويل يغزغز جسدك الهامد، لحظات وينفتح الجراب عن حربة لا تكل ولاتمل.

وأنت غارق فى دهشة، وصمت أبدى ولفح رياح تقذف الرمال فى عينيك، واللحظة تحين والجراب ينفتح، وحربة تخرج هكذا على مهل حمراء ولامعة، والكائن يتضخم ويدنو، وصوت من قريب يهمس:

– سيبه يا طعيم.

والكلب يتراجع فى زمجرة يزوم وينفرد وينفض جسده، ويقف على رجليه الخلفيتين، ظهره للشمس ووجهه للوادى وحربته الحمراء تفض بكارة الخلاء الشفيف.

كانوا ملتفين حولك، وجوههم الحمراء الشاربة من العز تتأمل جسدك المسجى على حصير الرمال، عيونهم قاسية ومخيفة، وأصواتهم الآمرة تستحيل لفات مبهمة وممطوطة، حين تجمعوا

والتفوا صاروا كتلة لحم تسد الفراغ لها رأس كائن خرافى شبيه بـ(طعيم) أقدامهم تتحد وتزيحك فتتدحرج إلى الوادى، تنزلق على الرمال كراقص على الجليد، وحصير الملح ممتد حتى سيقان النخيل، وأنت تهوى فوق ملح يذوب، وقدماك تتآكلان وتلسعان نعومة الروح فيتطاير الملح والصراخ من فمك، كم كانت سرعتك وأنت تحاذر السقوط، تميل وتعتدل وتوجه جسدك صوب الوادى، ناس يتفرجون وطير يضحك ونخيل يتمايل وشمس باتت فى حضن المغيب.

وأنت تندلق فى بحر يوسف، تغطس وتقب وتخرج مبللاً بالحسرة والتعب، رافعًا إصبعك فى وجه ليل يتناوم، لترتكن هنا على ساق النخيل وتتأمل الصحراء وراء البحر تمتد فى رحم الغروب.

-٣-

الهروب شرقًا

متى تتجلى إذًا، اغرف من هواء البحر واعطس، عجل وهيئ الحنجرة القديمة.

فالنهار يلملم بؤجته ويمضى غائصًا فى بحر الشفق، والنخيل المائل يغسل ضفائره على جنبات الشواطئ.

والصور المقلوبة فى الماء رائحة وغادية لعيال يهرولون خلف الخراف، وأياد تضرب مؤخرات البهائم وسيارات تهيل العفار على الجسر المقابل، وطيور تشق زجاج الفضاء وصهاريج المياه على الشاطئ الآخر يحك فى لبد الغمام.

أسمعنى صوتك الدافئ وأغانى الحصاد وشيئًا عن الغائبين وفراق الأحبة وسارينة قطار تدوى وفرج يدق باب المهموم وتأوهات المريض وقد هجره الأهل وانفلات الصيد وغزالة مع الدلال ويمامة فى حضن الغراب.

منذ متى تحتفظ بهذه المواويل؟

قلت لى إن الذى علمها لك زميلك فى سلاح المدرعات، كان لا يتحدث إلا بها، يفصلها قدر الحاجة ويجدلها كحبال ليف تشد الخيام وتحمى الغنم من أنياب الذئاب وكنتما تتسليان فى الخدمة الليلية، تروحان وتجيئان على صفحة الرمل، الأسلحة معلقة فى الكتف والزخيرة فى الحزام لا داعى لها، فالحرب انتهت منذ سنوات وحررت آخر قطعة من سيناء.

وزميلك يغرف من بحر المواويل ويصب فى قلبك الظمآن وعينيك الجوادتين بالدمع، كان يأتى بالموال حسب حكايتك، شىء عن «وهجم السيل فى عز الليل وأنا دفيان» «وزعق الوابور ع المحطة قالوا الحبيب سافر»..

وسيل وليل ودمع مدرار، وصديق قاسمك أوقات اللعب والفرحة وهمهمات الأب ساعة الاحتضار وهو يسلمك عقد القيراط الذى اشتراه من صاحب البستان ويوصيك بإخوتك، وأنت تسدل جفنيه عن قسوة المدى وتنيم فى صعوبة إصبعه المنتصب، والمواويل تنبدر جلية ونقية ودافئة، فتمر الساعات رائعة ورائقة، وربما أطبقتما خدمة أخرى وتركتما زميليكما نائمين حتى طابور الصباح.

قلت لى إنك قابلت صاحبك هذا بعد سنين، وبعدما رجع الناس من العراق بالورق الأصفر حين ضاقت بك السبل إلى جواز سفر وكفيل وتذكرة طائرة إلى الإمارات، فقررت أن تذهب إلى ليبيا، فاقترضت ثمن المواصلات وتحسست بطاقتك الشخصية وانحشرت

مع الرفاق فى البيجو، كان السائق قد لف فى القرى والتقطهم من أماكن مختلفة، بين أحضان وبكاء وأطفال يتشبثون بالجلابيب، كنت ترى هذه الوجوه لأول مرة، وتود لو أن أحد الراكبين تحدث معك ولكنهم اكتفوا بالصمت وإمداد السائق بالسجائر وحفان الكشك وكور المفروكة والاستماع إلى (أبو عباب).

هناك نزلت كفرخ اليمام الساقط من علياء الشجر، تدور فى لهفة والأجساد تحتمى من صهد الشمس بظلال مهلهلة.

غلقان وأدوات نحت وبناء وهدم،ومقهى تتلاصق عليه الأجساد، الحنوك تمضغ بقايا التفل، والعيون تبحث عن أفواه تنادى أو أصابع تشير، وأنت رأيته قادمًا من هناك.

كان يشق اللحم بصعوبة وينسلخ من بين الأجساد يلملم جلبابًا تهدل ويقبض بيده على فأس صدئة، ويسرع إليك كيف لمحك، وأنت القصير تغيب رأسك المنحشرة بين الأكتاف ولغط الكلام وشارات الأيدى التى تتطوح كالغرقى، حقيقة أنك لم تكن تعرفه على البعد، حتى عندما اقترب وهو يزيح الأجساد ويفتح لك حضنًا بامتداد الذراعين، كانت اللحية منبدرة على وجهه كأعشاب الجسور، والعينان غارقتين فى سحب اللهفة ولمعة ندية وحاجبين منبلجين حد الدهشة وحضن مفتوح بوسع المدى.. واحتواك.. كان دافئًا ومتهدج الصدر وهو يبكى بحرقة ويتشمم جسدك ورأسك، يتحسس تجاعيد وجهك وشعرك اليابس، كان هو وإن تخشب الجسد وذبل وباتت عروق الرقبة، قد كان رائعًا فى الميرى حين يميل

الكاب على أحد الجوانب ويضع ذراعيه فى وسطه ويقف مشدوداً أمام الصحراء والفحامات العابرة مبتسماً كأنما قد سد بجسمه ذلك الفراغ أمام ضحكات الجنود، وهو يدور ويدب قدمه فى صفحة الرمال، ويعطى التحية لضابط قد وقف فى حقول خياله لا يكف عن المرور أمام يده التى لاتتوقف، وقهقهاتكم التى تدشدش صمت المكان، وكان عندما يضحك تتدفق شلالات الدماد إلى صحراء وجهه، أنت مازلت تفتش عن ملامحه القديمة تلك التى اختفت تحت سحابة الحزن كموال منسى وزوبعة عفريت تلحس، ملامح البيت الترابى وحفر السيجة ورسومات العيال.

لقد ذبت فيه حتى آخر نفس، وظللتما هكذا أمام أجساد تأتى وتروح وتتلاقى ومقهى يزداد وفؤوس تتراص.

ياه. لم تقابله فى مصر.. قابلته فى ليبيا، وفى هذا المكان الضيق، كنت تتمنى لو تقابلتما هناك فى مصر.. ويرى كل واحد منكما الآخر فى بيته، حيث الحصير يفرد فوق التراب اللدن، والدجاج الصارخ تحت السكين وطشة الملوخية مصحوبة بالشهقة، وأكل المناب حتى سماع قرقشة العظام ومص النخاع والقسم الصارم:

– علىَّ الطلاق لتخلص منابك.

وكأنه ينتظر ذلك القسم، حين يأكل بين رغبة ولهفة وأدب وفرح، صب الأبريق وغسل اليدين والشاى الثقيل، تأبط الذراعين واللف فى شوارع البلدة حيث السلامات والتحايا والاستضافات

وسهر الليل وتجمع الأصحاب الذين حدثتهم عنه، ودحرجة الذكريات المضحكة على وسادة تضمكما وأنتما نائمين ملتصقين كجسد واحد حتى أذان الفجر، كنت تتمنى لو تريه بستانكم القديم وأباك وإخوتك وأن تطعمه أحلى الثمار وتعلمه تسلق النخيل والأشجار، وتسمعه شريط مكرم المنياوى فى دور أولاد جاد المولى «الشمس فى غروب وليها هروب فى نظرنا» وكان يتمنى لو يريك بلده البعيد ومزارع الأرز ويطعمك أحلى وجبة دسمة ويهديك طاقية مقرنة ويريك البنات الحلويات على أصولهن ويجلسك مع عائلته تتسمع الكلام اللدن وأخبار البلاد، ويسمعك أشرطة ليوسف شتا وهو يطلق صوته الخارج لتوه من رحم الزروع: «ياللى انت ضليت ولا بصيت فى مراتك.. تضحك الناس وتشخط ليه فى مراتك.. ومن عيوبك تجيب العيب فى مراتك».

لقد طال العناق وجف الدمع وهدأ النفس وعدتما إلى الحيرة وكيف يكون السؤال؟

قرأت فى عينيه أنه لم يكن يتمنى أن تراه على هذه الحالة، حيث ضاقت به السبل وجاء هنا منذ شهور، يوم عمل وعشرة أيام نوم، وجنيهات لا تكفى، وعيون تتوجس خيفة كلما رأتك يالغريب يريد أن يقول لك إنه يتخفى ويختبئ كل يوم عشرات المرات، حتى الذين يأخذونه للعمل، يظلون يضاحكونه وهو يعمل بكل طاقته، حتى إذا جاء وقت العصر استدعوا الشرطى، وأنت ترى السيارة على البعد تقترب، عند ذلك تدع حذاءك وربما جلبابك الذى ركنته بجوار

الحائط وتسرع قدر استطاعتك وحيلة القدمين المتعبين وحجم الخوف من أن تكبلك السلاسل والجنازير والزنزانات وترجع مهزومًا أمام أهلك وعيالك.

إن عينيه تعاتبك وتسألك: لماذا أتيت؟ ألم تقل إن عندكم بستان ونخيلاً وشجراً، ألم تقل إنك تنام على ظهرك وتتلذذ بالثمار الساقة فى براح فمك؟ ألم تقل إنك تصيد السمك وتعبئ أكياسًا وتبيع؟

لماذا أتيت؟..

غرك الذين رحلوا وما عادوا، أنت هنا لا تدرى ما مصيرك، وما معنى أن يجىء الليل عليك هنا فى جحيم الصحراء وقسوة العيون، أنت لم تستشعر جفافًا حقيقيًا فى الحلق، حيث تبحث عن لين الريق فى عمق الصهد ويبس الفم واندلاع كور الشوك إلى عمق البطن حين تطبق الأشياء عليك وتضيق الصحراء بل وهى الوسيعة وتنكمش كفأر مزعور وتنحنى كعلامة استفهام فى رماد الظلام، فى انتظار يد تنطبق على رقبتك فجأة وتسحقك عشرات الأحذية وقسوة الشتائم وسياط الضحكات الهازئة وأنت تساق إلى مصر كنت تؤجله بكل ما أوتيت من حيلة وحيلة وجحوظ عينين تمسح بهما الطرقات وتسمع وقع الأحذية وسارينة السيارات وأنت لابد كخفاش فى جدار يوشك أن يصرخ «يا عربى ورائى القمرى فاقتله».

كل يوم شأنك مختلف، يوم يلقون عليك السلام، واليوم الثانى تنهمر عليك اللعنات والأحذية، مرة تجد العيون الحسناوات تتأملك من تحت البراقع ومرة ترميك نفس العيون بسهام الغضب

والاتهامات، وبين قبول ورفض، وقرب وبعد، وجذب وطرد.. تتأرجح روحك المنهكة، تمنى نفسك بالبقاء وتتمنى الرحيل.

كل هذه الأسئلة والكلمات ترسلها عيناه، من تحت سحابة الحزن، لماذا لم تتوقف لحظات ليقرأك؟

لماذا لم تقل له إن قانون المالك والمستأجر جردكم حتى من بيت يأويكم وإن مالك البستان باعه للعاملين فى الخليج والبوابين وبائعى الفول وتجار الخردة وأصبح عيونًا إسمنتية وأعمدة تجرح جمال المدى.

لماذا لم تقل له إن أباك مات بحسرته وألم الجوع، والنخيل يجر بسباطه أمام عينيه؟ وإن إخوتك فى انتظار عودتك بالمسجل والجلابيب الجاهزة والتليفزيون ونقود اقترضتها وأخرى تدفعها للبقالين وبائعى الغلال وأصحاب المواجب ومن جاملوك ساعة المجىء وأصدقائك الذين منيتهم بأحذية وملابس وأختك التى أرجأوا زفافها لحين عودتك لتستكمل جهازها وتزف قبل أن يدهسها قطار المشيب ويجف الرحم ولا تجد من يقول لك يا خال، وإن الناس هناك باتوا أحزابًا وطوائف واتجاهات وأن الغربة كحتت جمال الملامح القديمة وصبغت الوجوه بالبسمات المصطنعة والكلام الغريب والتشفى فى صاحب المصيبة ومعيرة من لم يطبخ يوم الخميس والتباهى بدق الحلل والأوانى أثناء الطهى، وتطويح الأذرع بأكياس اللحم المكشوفة ليرى من لا يشترى، وأنه لا أحد يطرق بابك بصحن طبيخ أو بتاوة سخنة (وخضة سمن) أو حتى طرق بابك المغلق لمجرد

السؤال عنك، أنت لا تعرف أن النقوط ترتفع فى الأفراح بمئات الجنيهات وأن المطرب يردد فى مكبر الصوت أسماء أصدقاء لم ترهم سوى فى ليالى الأفراح يأتون ويرحلون ليلاً ويجيئون بالخمس راقصات شبه عرايا هناك فى الجرف يطوحن لحومهن بين دخان البانجو والنقوط والأسماء التى بدأت ترتفع فى فضاء المكان، عباءات تلف ودخان يعلو ووجوه تنمحى ومكبر صوت يهدر وحنجرة تمخر فى عتمة الليل «هيصة.. هيصة..» وأن الصم يدق طبلتى أذنيك بآلاف المطارق، بت لاتسمع الهمس ولا ششقات العصافير الحائمة على حواف الجدران وأسلاك الكهرباء وأطباق الدش، وأن المحاجر كحتت بقايا الصحة فى صدرك وبصرك وعندما ذهبت إلى مستشفى الجامعة طلبوا منك إشاعات وتحاليل لم تجد ثمنها، ولم يقبل مدير المستشفى التماسك، وعندما رأى انتصاب إصبعك حرك إصبعه مشيراً لأفراد الأمن فإذا بعشرات الأيدى تركلك وتدفعك وترفعك وتلقيك بعيداً خارج المستشفى فاكهة يضحك عليك أهالى المرضى ويتأملون إصبعك المنتصب.

لماذا لم يقرأ هذه الأشياء فى عينيك؟ العناق طال والشمس ترتفع، وإصبع يشير إليكما فتسرعان:

- تبغو عمل؟

شهقة اندهاش وفرحة وأمل يتجدد ودم يتدفق فى صحراء وجهيكما، كان صديقك يبدو أكثر روعة وطفولة، وعيناه تنبلجان بسحر قديم، وأنتما تتغامزان وتمشيان خلف الرجل، كان طويلاً

يلبس جلبابًا قصيراً ولبدة حمراء، كان لا يتكلم، وكلما مر على أحدهم سلم وابتسم، وغاص بالسيارة فى عمق الصحراء، وأنتما ترفعان رأسيكما من السيارة المكشوفة حيث أكف الريح تصفعكم بحفان الرمال، أشجار متناثرة وفئران جبلية تقفز فجأة أمام السيارة وجمال ترعى على البعدد، هناك كانت المزرعة ممتدة حد الشوف، واديًا من قمح لا نهاية لأطرافه والشمس التى تبعتكم وقفت وضربت بأكف الصهد على أم الرؤوس.

أشار بيده... ففهمتما، وسللتما المحشَّان وانحنيتما ككائنين خرافيين، تسقطان ما ارتفع من أعواد القمح وتنهبان الأرض نهبًا، والمواويل القديمة تعود، وها أنتم مرة أخرى تجمعكم الصحراء والغربة والمشوار الممتد فوق الرمال وأغنيات الحصاد، والرجال هال بسيارته الرمال وولى تاركًا سحابة من غبار تعلو وتنخفض وتغيب فى بطن الصحراء، حقيقة لم نشعر بالجوع ولم يسأل الرجل فى طعام وعاد آخر النهار بجوال دقيق وكبريت وحلة محروقة وضع الأشياء بجواركم وعاد، كان صديقك يقول لك إن الهكتار هنا بعشرين جنيهًا، وجنيهًا فى ثلاثة يساوى.. وأنت تصلى على النبى وتدارى الفرحة فى عبك، وتحسب كم من الشهور ستأخذ تلك المزرعة، كان اليوم يمر سريعًا والأرض تتناقص، والليل تقضيان معظمه فى الحكايات وتشعلان النار وتجهزان العجين وتخبزان وتأكلان، خبزاً فقط وقمحًا مسلوقًا، وتسألان صاحب المزرعة (مفيش دجاجة؟) يقول الدجاجة والمصارى بعدما يخلص الحصاد.

واليوم تبدو الحواف قريبة وقد حصدتما عشرات الهكتارات من القمح، كان صوت صاحبك جليًا وهو يبدر المواويل عن العودة ودفء الحضن ونيل المراد، ويعدكم من الجنيهات ستأخذ، وأنت تغمزه وتقول «ومتنساش جنيه فى كام؟..».

فيضحك ويجز أعواد القمح.

والشمس مالت صوب الغروب، وأنتما انتهيتما الآن ولبستما جلابيبكما وانتظرتما الرجل، واتفقتما على العودة إلى نفس المقهى حيث السعد وإشارات الأصابع ومزارع قمح أخرى، عفار السيارة من البعد يقترب، والرجل ينزل ويتأمل القمح المحصور على مدد الشوف، وأنتما تبصان، الآن سيفتح محفظته، قلبان يدقان وعيون تنبلج وفرحة تغمركما ويده تزحف تحت الجلباب السميك، هناك فى الصديرى تنغرس وتنسحب على مهل، لم تكن المحفظة وإنما كان مسدسًا يتجه صوت رأسيكما اليد على الزناد والفم يطلقها صيحة:

- إيش تريدون؟

- تلتصقان كجرادتين وتهمسان بصوت مرتعش:

- أجر الحصاد.

- مالكم إلا هذا.

حقيقة لقد راودتك نفسك أن تهيل التراب فى وجه هذا الغنى، أو تحفر له حفرة بعمق الغيظ وضياع لحق وجوع الأهل وشتات العمر، وتدفنه فيها لقد كان يتطرق أمام عينيك أشكالاً مختلفة فترى فيه وجه مالك الأرض والمقاول الذى نهب حق صاحبك وشرب

دمه، ومدير المستشفى الذى أمر بإلقائك فرجة للناس ووجه السيد الذى حكى لك جدك عنه وهو يلهب بالكرباج الظهور العارية، ووجه ابن عمك الذى لفق حولك الأكاذيب وحفر البيوت وصادق اللصوص وناس ينبشون فى مقابر الجدود، والكلب طعيم وهو يشرع حربته ليدهس كرامتك، والكمسارى ذا العينين الخضراوين، الآن فقط ينتصب إصبعك وتحفر قدماك فى الرمال كنمر يتهيأ للانقضاض على فريسته، الرجل الواقف بلبدته الحمراء وجلبابه القصير يحاذر النظر إلى عينيك، وصديقك ترتعد كل مفاصله ويوشك أن يدخل تحت جلدك، لقد خشيت عليه أن تكون سببًا فى ضياعه، عيناه الخائفتان تستجيران بك، والرجل يتلفت فى انتظار شىء، يزداد وجهه ارتباكًا وأنت تتقدم إليه بمخالبك القديمة وإصبعك المنتصب، لحظات وتدفنه بمسدسه فى رمال تلك القطعة التى شربت من عرقك أنت وصديقك، والرجل يتضاءل فى عينيك كنملة، أنت لا تريد سوى حقكما، ستقلبه على الرمل كخروف جاهز للذبح وتخرج محفظته المنتفخة وتعد وتحسب حقك وصديقك على داير المليم، وتترك الرجل غارقًا فى خوفه ودهشته يتأمل مسدسه فى يده التى ترتعد، ماله يتلفت بحيرة التائه ولهفة الغريق.

يتراجع أمام مخالبك التى تقترب، وصاحبك الغارق فى دهشته وخوفه وبحث الكلمات فى حنجرته، يمد إليك يدين من استجداء وخوف وحيرة، وأنت اتخذت قرارك وهممت للانقضاض، الجبل

الذى كان ينبت الفئران المتقافزة، انطلقت منه سيارة الشرطة مقتربة، والرجل الذى كان يرتعد انطلقت منه ضحكة عمت أرجاء الصحراء، كان فى انتظار تلك السيارة التى حاصرت أقدامكم المسرعة، وأنتما تقفزان كالفصاد بعيداً عن المدقات والطرق المستوية، والعربة الجب تنطلق وراءكم بلا هوادة وضحكات الرجل تأتى من بيعد ممطوطة كموال وحداد وندب، هنا فى تلك الحفرة اختبأتم وخمدت أنفاسكم تماماً، والسيارة الجيب تقف بالقرب منكم، كان العرق ينهمر بغزارة صاقعاً ومالحًا وقوافل النمل ترعى تحت رقيق الجلد، والأحذية الجلدية تنغرس فى الرمل قريبة وأنتما لبدتما ودفنتما جسديكما بالرمل ورأيتما الأحذية تبتعد والسيارة تنطلق عائدة فقررتما العودة.

كان الليل قاسيًا وهو يقترب كخفاش يعم المدى، وأنتما تتجهان عكس الشمس، تجريان بلا توقف، وتعبران السلك الشائك، علمتك الحياة وأنت تنتقل بين فروع الأشجار أن تحاذر الشوك، وأن تجمع اليمون دون أن تغزك شوكة واحدة، وأن تقشر التين الشوكى ولا يترك أثراً فى يدك والآن تتسلل على مهل وحذر وعينك على صاحبك الذى يخلص جلبابه بصعوبة، وكلما عبرت سلكًا منيت نفسك بحياة جديدة أنت لم تفكر ماذا سيكون بعد وأنت تزحف كمن يتحرك داخل وكر للثعابين أنفاس تتردد وقلب يدق وجسد ينسلخ وأعضاء تلتصق ببعضها.

والآن الرمال الناعمة الصفراء، ياه، نفس الرمال القديمة التى

كنت تتقافز عليها هناك خلف العيال حين يصنعون لك حفراً يغطونها بالأعشاب والرمال وأنت تسقط فجأة ويخرج رأسك الخائف متلفتًا ومتوعداً وضاحكًا، وحين تخرج يكون فى انتظاره عجل الطلوقة الذى يدهش الكائنات ويحك الرمال بقرنيه ويتعقب أقدامك الفارة، الآن أنت تجرى وتتقافز وتعافر وتسلخ رجليك من بحر الرمال بصعوبة وصديقك يتشبث بطرف جلبابك ويحتمى ببقايا حياة فيك، والرصاصات تنطلق من كل جانب تلاحق هروبكما شرقًا، حيث الشمس تطلع من هناك، كانت بعيدة ومتوهجة وخارجة لتوها من رحم الشروق، كنت تريد أن ترتمى فى حجرها وتقول لصديقك إنها تطلع من وراء بيتكم، وحين يغز فيك الجوع وألم الفرقة والمصير المجهول وقلة الحيلة وجريان جنود خلفك ورصاصات تمزق نسيج الخلاء ووسع يضيق بك – تئن كمضروب بألف حربة، وتنكمش كهارب من طوب الصبية وشارات الأصابع ولطم الخدود وضحك الوجوه الشامتة، تتضرع وتبتهل وتتداعى إلى رأسك الأسماء ومواطن الدفء وحجر الأم وشاطئ النهر وتراب البيت وحصير الظل ولمة الأهل، وصديقك يقرب من فمك قرص خبز كان قد نسيه فى جلبابه، وأنت لا تملك سوى أن تجرى بقدر الحيلة وانطلاق الطريد، وصديقك يتبع آثار قدميك، كان ثقيلاً ومنهكا وهو يندفع فى بحر الخلاء بعقوبة وصدر لاهث، لائذاً بذكائك وظهرك المنحنى وقدميك المتقافزتين وحفيف جلبابك وعبق عرقك، كان ينكفئ بطوله على الرمل كنخلة وقفت، ويعوم

كسلحفاء خارجة من البيض تتجه إلى النهر البعيد، كان ظهرك أمام عينيه يصفر والمسافة بينكما تبتعد، والجنود مازالوا يتسلون بإطلاق الرصاص من أبراجهم العالية، مصحوبة بالضحكات والنداءات البجحة، وقال لك انتظر، وسمعتها خافتة وحزينة ومستنجدة بك، قال لك قدماء تؤلمانني وروحي تنسلخ وما عدت قادراً على الجرى يرفعهما بثقل ويلهث وينادى بصوت مبحوح:

- على مهلك يا قمرى تعبت يا خوى.

كان يتلوى ويزحف على جنبه كثعبان الصحراء، يقوم ويقع ويستند على جدر وهمية ويتشبث بخيوط الضوء وأنت توقفه، أحسست بأن عشرات الجدران تواجهك وصوت يجذبك بآلاف الخيوط، كان بعيداً يبدو كنقطة وهو يرفع رأسه ككلب البحر ويكسح فوق الرمال وصوت انفجار يخرج من تحت حصير الرمل مدوياً ودافعاً ماردا من عفار وأشياء متناثرة، كأنما آلاف الطلقات تجمعت وانطلقت هكذا دفعة واحدة وكأنك على فرع شجرة والثور يهدر فيها بعمق الغضب، يتطوح جسدك على أرض ترتج وخلاء يميل، كنت تسمع عن الحرب والألغام التى تتفجر تحت الدبابات، ومارد من جحيم يرقد تحت الأرض الصامتة ينطلق فجأة، وأنت مازلت واقفاً تتلفت حيث كان صديقك يجرى هناك، أنت لا تدرى ماذا حدث، غير أن شبحاً من غبار ينخفض الآن، ويداً مبتورة بجوارك بها خاتم كنت أهديته لصديقك كانت يده مفتوحة فى فضاء المكان، وأنت بين خوف ودهشة وخدر يجتاح الجسد، تتذكر حقول

الألغام، تلك التى حكوا لك عنها، لماذا لم يخطر ببالك وأنت تسرع صوب الشرق أن تقف لحظة للجنود وتنحنى كخروف وترفع يدك لعلهم يرحمونك ويرسلونك إلى بلدك عبر أقسام الشرطة وبصمات الأكف النازلة على الرقبة المستسلمة، لماذا كان خوفك من الفضيحة ومعيرة الأهل وضحك البوابين والعائدين من الخليج وسخرية الجيران أكبر، عشرات الأسئلة تتوارد إلى ذهنك، كان يجب أن تتوقف رغم انهمار الرصاصات خلفك، كان يجب أن تعلم أن الرصاصات توقفت والمطاردة انتهت والجنود وراء الأسلاك وقفوا يضحكون ويتبادلون التهانى ويستديرون بظهورهم عائدين، كانت أصابعه لاتزال تتحرك، ورأسه المحشو بالذكريات والمواويل ملقى هناك ما الذى جعل قدميك ثابتتين هكذا، ماذا تريد؟.. أن تلملم الأشلاء المتناثرة؟ وهل أنت فى براح بستانكم، تلتقط الثمار وتحشر فى فمك وتعبئ فى حجرك أنت هنا بين موت محقق وحلل حديدية مغلقة على كور الجحيم، أنت لا تستطيع أن تتحرك أو تقفز أو تنادى، والشمس خرجت من وراء بيتكم وعامت فى بحر الفضاء ووقفت فوقك مباشرة وصبت نيرانها عليك، وأنت واقف هكذا تقاوم الريح والرمل المتطاير والذباب اللحوح وتموجات الرمل وثعابين على البعد تزحف، ومن حولك سيقان وأذرع وعظام نخرة وهياكل حمير ومتعلقات وحقائب مبعثرة وملابس متمزقة وأجهزة كهربائية مهشمة وحصان جلدى تلفحه الريح فيتطاير هنا وهناك.

لماذا لم تلاحظ ذلك وأنت تجرى؟ لماذا لم تسترجع حكايا

المتسللين من السلك الشائك والألغام وأولاد على؟ ما الذى سيحدث الآن؟ أنت لم تعد تخش أن يواجهك الأهل والأصحاب بعيون شامتة وقاسية وفاضحة، ومتحسرة على أيام ضاعت وغربتك التى كانوا يحلفون بها، والاستدانة من البقال والتجار، وشوق زوجتك إلى لبس المقصب وشد الكحل والضحكة المنسية واللحم المهجور ودلق الماء الليلى العبق برائحة الرجال والصابون أمام عيون نسوة الموارد والطقطقة بالشبشب (أبو زنوبة) أمام الجيران.

لماذا نسيت كل ذلك وتمنيت فقط لو ترتمى الآن أمام بيتكم كضال هدّه السفر وأتعبه المرض واستسلم للموت اللذيذ، كم تتمنى الآن لو تنام على حصيرك، تدثرك الألحفة وتحتويك وجوه الأحبة ويظلك البيت القديم والحوائط الطينية.

إن صديقك المتناثر يستحيل جمعه، بل إنك لا تستطيع لملمة أعضائك التى ارتخت واستسلمت للموت، وأنياب الذئاب، وانتظار أبدى وآلاف الأجيال تتعاقب وتذكر أن لهم عمًا غريبًا لم يعد، وزوجة ستمنى نفسها كل ليلة حتى المشيب بأن الذى هجر سيعود والذى غاب سيرجع، وهذا الجسد الذى أسدلت عليه تلال الملابس والهموم سيرجع من يهدهد عنه ويعيد اكتشافه.

تتأمل أعضاء صاحبك المبعثرة، هل من الممكن أن تلملمه وتعود به إلى بيته، هل تستطيع أن تدفنه هنا وتواريه عن مخالب الذئاب وأقدام المارة وعيون المتطفلين، هل تتركه أمام تلك الطيور السوداء التى خرجت من ظلام الكهوف والأودية البعيدة وتجمعت كغمامة

ووقفت تحوم.

سيظل يخاصمك إلى الأبد، سيأتيك فى الليل ويحاكمك فى حضرة أبى زيد والشاطر حسن والبدوى وبنت بر، سيصرخ أمام الجميع عن صاحب أطعمه الشهد وأرضعه المواويل وعلمه الحكايات وقاسمه الضحكة وبرد الشتاء وليل الخدمة وحفان الكشك والخبز اليابس وغيط قمح يمتد حد الشوف.. الآن يتركه وحيدًا لطيور الليل وبنات الأرض وحيرة الأهل وضياع الهوية، كم من ضابط وولى سيحضرون المحاكمة التى ستعقدها رئيسة الديوان، ستساق هزيلاً أمام كون يضحك وشيلان تهفهف ومسك يفوح ونوق تبرك وخيام تنصب وهمهمات ذاكرين وجباه تنضح بالنور ومجاذيب يتطوحون فى براح الضوء ودق الدفوف وأياد تخبط بعضها فى حسرة على ضياع المعروف وقلة الأصل وهتك العرض وفرجة الناس، سيضعونك فى زجاجة ويرمونك فى بحر تتقاذفك الأمواج، ستستحيل قطًا وطائرًا وخفاشًا ومسخوطًا على باب المدينة تنهمر عليك حجارة الصبية وبصقات العابرين، سيحملك طائر الرخ إلى بلاد الهم هناك حيث تذوب فى بحار الغربة والوحشة ومدينة النسيان...

يااااه، الشمس تضرب على الرأس بقسوة والنافوخ يغلى فترى الصحراء بحرًا ممتدًا يتماوج، والحلق يغص بريق مر، قدماك يصطكان وعيناك الصفراوان منبلجتان أمام الريح، ماذا لو ذهبت بجزء منه، وقلت لأهله هذه رأس ابنك استخلصتها من بين أنياب

الذئاب وطيور الليل وجحيم الصحراء ونيران الطليان، أليست هذه عينيه، وذاك فمه الذى كان يغنى المواويل، وهذا الوشم على الذقن يبدو كحمامة، لقد بت ليالى طويلة سائراً على الأقدام من بلد إلى بلد، جف الرأس وأصبح كطبلة وسالت العينان وأنا أمشى عبر بلاد ومحطات وشطوط بين حذر وخوف حتى أتيت إليكم، فلتشكرونى إذاً، ادعوا لى بالخير، احملونى فى ذاكرتكم إلى الأبد، قولوا هذا الذى لملم لحمنا وستر عرضنا ودارى عيبنا، قولوا للبدوى والدسوقى وضباط الليل وسيدتى رئيسة الديوان أنى ما خنت الأمانة أو العهد ولا ضللت الطريق، قولوا لهم يربطوا رأسى بشال الحرير ويعقدوا على جبهتى بقصاصة خضراء ويجعلونى على رؤوس القوم شيخاً ومنشدا ودليلاً.

إن حمائم الأفكار تتخبط فى رأسك، والقىء يتردد فى حلقك، وأنت تعلم جيداً بأنهم سيسألونك عن جيبه ومحفظته.

سيقولون: له سنين يعمل هناك، كانت لديك حقيبة مليئة بالجنيهات.... ونحن نعد له باليوم، اليوم بعشرة، وعشرة فى عشرين يساوى كم، احسب يا حاج حسين، ومن حسين إلى سيد إلى باقى العائلة، ثم البلدة والوطن، يحسبون ويعدون، وأنت تدور عبر أقسام الشرطة متهماً بالسرقة والقتل والتضليل، لن تعود إلى بيتك إلا بعد المشيب حيث سيعلم الكون بأنك خنت العهد وهتكت العرض وقتلت الصديق:

ماذا لو عدت به؟ ولكنه ما حكى أبدا عن قريته ولا أعطاك

العنوان الصحيح.

كنت تعرف أنه يتجمل كالمواويل، مرة يقول إن عمه عمدة وإن له أرضاً، ومرة يقول إنه من بلد أخرى وعائلة كبيرة ولديه مزارع وورش وليست له أية مشاكل، لم يحك لك عن فقره وحاجته، حتى عندما لاحظ الشك وتلك الحيرة فى عينيك حين التقيتما على المقهى فى ليبيا ورأيت كم البؤس والعوز الذى يكسو ملامحه الحزينة، وأنت توشك أن تقول له:

– أمال فين الفدادين والجمال وعمك العمدة والورش...؟

ماذا كنت تنتظر أن يقول لك؟ إنه فقير مات أبوه وتزوجت أمه رجلاً شرسًا، وإن أباه كان يغزل الطواقى حتى ضعف بصره وكلت يده وتاه منه المغزل الذى كان يبحث عنه بكف مفرود.

وإن الرؤوس العارية كان تمضى من جواره فرحة بالشعور المصبوغة بالزيت، يميلون عليه وهو جالس بين تلال الطواقى ويسألونه:

– عندك طواقى؟

– أيوه.

– كلها.

– وتنطلق الضحكات فى فضاءات الشوارع.

بعدما وجدوه ميتًا المغزل بين أصابعه يعمل فى طاقية لم تكتمل، ماذا كنت تنتظر أن يقول لك إن زوج أمه حاسبه على مصاريف أيام الجيش حتى الفطير الرقاق وحفان البلح ومضاه على بيع البيت

وعندما بكى وقال:

- أمال يابوى على أجوز بأيه؟

مسح رأسه الأصلع وصاح فى حضرة الجميع:

- مش كفاية سايبلك الطواقى تعبى فيها طبيخ..

وضحك حتى غرغرت عيناه..

نعم كان يفضفض معك بالمواويل والكلام لينسى همومه لا وقت إذا لكل هذا الكلام، وأنت تنظر، كان رأسه الملقى هناك جازًا على الأسنان مندهشًا لانفلات الحياة هكذا فجأة دون ترتيب، والشمس أوشكت أن ترتمى فى حضن المغيب، وأنت خائف أن تقفز أو تقف أو ترجع، وسياط القرارات تلسع تلافيف روحك تتردد فى ذهنك، امش، قف، ارجع، نم، مت، دع جسدك هكذا يتطاير، لحظات وتنسلخ الروح ويغيب الألم ويرتاح الجسد ونداءات أهل هناك فى بيتك البيعد، تحس أنها قريبة، همهمات تخترق أذنيك، وأنت فى موت محقق، إذ بنقلة قدم سينفجر اللغم تحتك ويبعثرك عشرات القطع، ما زال الصوت يناديك من بيعيد، ظننته هاتفًا ووهمًا يتسرب إلى أعماقك، ولكنه كان جادًا وقلقًا وواقفًا كطائر حط فجأة على صفحة الرمل يناديك بدفء حميم:

- يا وليدى لا تتحرك..

نعم.. انظر.. على البعد رجل يناديك ويلملم شاله فى دوامات الريح يوجه النداء إليك ممطوطًا وراجيًا وحنونًا وبين فرحة ودهشة ورهبة ورغبة ترتفع يدك فى ثقل كأنما من عمق بحر، وتنادى من أعماقك.

- غيتنى يا عم.

الرجل ينزل عن جمله ويرفع عصاه مستقيمة فى الخلاء ويناديك.

- امش قصادى على طول ياوليدى

وأنت بين حذر واندفاع ورغبة فى حياة توشك أن تنطفئ، تنقل القدمين على مهل كانت المسافة أطول من العمر وتسلق النخيل والسباحة إلى الشاطئ الآخر بين هدير دوامات تندفع وتماسح تحبو فى خبث على صفحة الماء واللحظة ثقيلة ومميتة. الريق يجف والذراعان المفرودتان تتسندان على حافة الريح، كنت كمن يمشى على حبل مربوط بين جبلين، توشك أن تهوى فى واد سحيق وبحر من جمر.

الصوت يحذرك ويلهث ويدعو:

- على مهلك يا وليدى خطوة.. خطوة

أطراف أصابعك تطأ صفحة الرمل بحنو ورهبة، والرجل يفتح ذراعيه ملء المدى يتنهد ويبتسم ويستعيد الوعى والروح والفرحة كلما تقدمت خطوة ويهمس:

- خطوة.. خطوة..

إلى أن ارتميت بين ذراعيه وذبت فى ربيع حضنه ونعومة جلبابه وصدره اللاهث ووجهه الفرح ودقات قلبه المتسارعة ودعواته التى تنهمر من الفم طرية وحنونة، لا تدرى كم ظللت من الساعات والسنين وأنت لائذ بدفئه هكذا وهو واقف على حافة الموت يوشك

أن يحتويك بكل كيانه، يصب ماء النيل فى فمك ويعبئك بالأوراد والتسابيح ويمسح الرمل عن وجهك المصفر وعينيك الزائغتين ويقول لك:

– مش تدير بالك يا وليدى منهم لله الطليان ما تركوا لنا غير الموت.

يسألك إن كنت تريد شيئًا وأنت تشكره بكل كيانك ويدلك على المدق والطريق الخالى من الألغام، وعندما يسألك عن أخبار ليبيا، يخترق إصبعق سحابات الغروب.

«حفريات باهته»

حين ألقيت بجسدك على عتبات بيتك.. أدهشتك المفاجأة، حيث جاءوا من كل مكان يتفرجون على غريب يتلفت بعينين زائغتين فى أرجاء المكان، كان البيت على حاله، واجهته المتقوسة وعش العصافير، وبقايا حفريات قديمة كنت تحفرها بمسمار مدبب على الباب الخشبى، منذ كنت طفلاً وتتلفت وتحاذر قدم أبيك المفلطحة وهى تهيلك فى بطن الشارع:

– بهدلت الباب اللى ساترنا.

طرق وخرائط، وتمتمات وحروف منمقة، معيز وخراف وغمامات ترحل، ووجه صديق قديم كان يسامرك هنا على عتبة الباب، ويفرغ أسراره فى محراب ذاكرتك، جرار زراعى ومقطورة وعيال يدفعون عن وجوههم سيل طوب ينهمر من أيدى العيال،

وعجل كبير بحجم الكف يطارد طفلاً كعقلة الأصبع، وكلب يبدو كصخرة منحوتة يلاحق هروبك المستحيل، ورجل يدلى بسنارته فى فضاء النهر، أوتوبيس (أحلاهم) ورجل يجذب سروال الآخر، وشاب ممسوح الملامح يحمل هاتفًا ويغرس جسده فى المساحة السوداء، وأيد تعافر فى جبال الموج، ونخيل نائم على جنبه، ذكريات وحفريات وخطوط كنت تعمقها كل يوم لتؤكد وجودها أمام النهارات البكر وعيون العابرين.

وتحفر فى المساحات الفارغة مزيداً من الأحجياب والسير والمواويل ووجوه المداحين وأسماء الأحبة والشوارع والمساطب، حتى يوم رحيلك كتبته قبل أن تعانق المودعين، وضحكوا من قلوبهم وقالوا:

- ياقمرى ما أنت هتركب بوابة حديد.

وضحكت فى عبك ووضعت المسمار بعناية فى عقب الباب.

نفس الباب وعبق الطفولة وعطن الخشب والذكريات، وتراب يعبئ التجاويف والنمنمات، فتختفى الملامح والحروف وواجهات الأشجار، ويطمس الغبار وجوه الأحبة وخرائط الذكريات، فتبدو الأشياء مبعثرة ومشتتة وباهتة لاتكشف شيئًا، وأنت تغز عينيك فى رحم المكان والأجساد المنحنية والوجوه المتفرسة فيك، ومسجد من سعف النخيل يتطوح فى فضاء البيت، وامرأة خارجة لتوها تتشمم رائحة قديمة وتفرك الدهشة عن وجهها.

أهو أنت؟... إنها تتأمل جلبابك الكالح والرقعة القديمة، تقلب

جسدك وتحدق، ياقة متهدلة وذراعان لينتان ويدان مفرودتان بحجم اليأس، وعينان غائمتان تتلفتان فى حيرة أبدية وبريق ممسوح وعمامة استحالت مزقًا وتهدلت أطرافها المحبوكة على الشعر المنفوش، تصرخ ملء الكون، وما كان الناس بحاجة إلى صراخها حتى يتجمعوا، فقد تبعوك من ساعة خروجك من البلد المجاور، وأنت تسوق جسدك المتعب على الجسر المتلوى، تدفع نفسك فى لبد الضوء وسهام العيون وتوافد الناس، يتقافزون فوق الأعشاب والقنوات ويحيطون بك، وأنت تمضى هكذا دون التفات، يوجهك الحنين القديم ورائحة المكان الذى تغيرت معالمه، المصرف ردموه، ورأيت خط البيوت فوقه يمتد حتى النخيل، كان المصرف هنا، وكنت تنحنى كالوعل وتغوص بيديك متعقبًا القراميط المختبئة بين الحشائش والأعشاب والمياه الراكدة، تاركًا مؤخرتك العارية للشمس والريح والأعين المحيطة، وكمن يعافر شيطانًا يفلت، عيناك تبرزان وقلبك يدق، والماء الساكن يستحيل جيوشًا تتعارك، والشاطئ امتلأ بالناس، وأنت تمخر كعجل الطلوقة، لحظات وتقف ناثرا بالماء كمارد خارج لتوه من قارورة خبأتها عجوز الأحجيات منذ آلاف السنين، تستقيم عاريًا فى بحر الخلاء محملاً بالقراميط ملء اليدين والفم، وسط عيون تبص ونسوة يدارين وجوههن وينظرن من ثقوب الطرح.

وجوه لم ترها من قبل، وكلاب افترشت تراب الجسر وزامت فى المارة، وما إن دخلت على أول البلد ورأيت البساتين وقد أكلتها

المبانى، حسبت نفسك غريبًا هنا، والبلد ليس بلدك، الناس يلتفون حولك ويغرسون حراب عيونهم فى طراوة جسدك المنحنى، وأنت تقسم لنفسك أنه نفس المكان والرائحة، وأن هؤلاء المحيطون بك يحملون شيئًا من ذلك العبق، شىء يسرى تحت الجلود وهزهزات الأكتاف وجحوظ العينين ساعة الدهشة وميل الرقاب حال التنصت، وزحزحة الطواقى جانب الرأس ساعة الزهو والسخرية والتندر على العابرين وتفجير النكات، والضحك فى العب فى زحام الجنائز، حيث المسافة طويلة والمقابر بعيدة، والمرحوم كان يأكل كثيراً، والأربعة الذين حملوا النعش ما أجارهم أحد، وبطن الفقيد توشك أن تلامس الغمام.

شىء ما يؤكد أنك تعرفهم رغم تغير الملامح وتبدل الجلابيب والعمائم ونتف الشوارب ولبس الأحذية الجديدة الآن غامت الملامح وتداخلت الرؤى، وتوافد الناس من الغيطان وحلق السيجة والتفوا حولك.

تقسم لكل خطوة تخطوها على هذا التراب، وكل نخلة كانت هنا أكلت من بلحها وصعدت علياءها حتى الجريد، انتقيت الرطب من السباط وأكلت، والعيال ينتظرون بلحا تبدره عليهم، أيديهم ترتفع، وحجورهم تنفتح، وأفواههم تصيح:

– ارم حفنة يا قمرى.

– لما آكل على مهل وأشبع.

وتأكل وتشبع وترمى للعيال، فيزداد الصياح تحتك والارتماء

فوق التراب ولملمة البلح وامتداد الأيدى مرة أخرى، وأنت هناك فى فضاء الله تتأمل البيوت الواطئة، حتى بيت الجابرى تراه وقد تآكل خزان المياه فوقه وهجره الكل إلا محمود الجابرى، وترى برج الحمام الذى تكسرت بنايته وسكنته الأفاعى، تمسح الأشياء بعينيك حتى وراء النهر وصهاريج المياه البعيدة، وعيال يتسابقون بالحمير على الشاطئ الآخر، وأشجار السنط البعيدة، وهى تتشابك كالغولة وتدارى قباب القبور، والعيال من تحتك ينادونك:

– كمان شويه يا قمرى.

– قلت لما اشبع.

يتردد القسم بين فضاء نفسك وإشارات الأصابع، بأنك لا زلت تتشمم عبق التراب والرائحة القديمة، أليس هذا هو النهر الذى يأتى من البلد المجاور محيطًا بهذا المكان، يحمحم عليه برقرقات الماء وأعشاب البلاد وفيض الأسماك ورنات الضحكات على الموارد وبهجة الماء البكر، وينحنى غاسلاً ظهر البيوت وهموم الناس وأجساد العيال ليظهر عند البلدة الأخرى.

تغرس عينيك فى عمق الدروب الجديدة والشوارع، وتحاول أن تفر من ذئاب الذكريات التى تطاردك من ساعة أن تركك الرجل هناك على الحدود، ورأيت التلال باركة كالوعول على بساط الصحراء تخبئ رؤوسها والحكايات والعظام ومزق الملابس، وتوشك أن تتضخم فى لحظة وتلاحقك كسلاحف عملاقة، والرجل اختفى هناك، لماذا فضلت أن تظل هكذا مستسلمًا للفح الرمال،

كنت تريد أن تعود لتلملم أشلاء صديقك الذى بعثرته الريح وغطته الرمال واختبأت أشلاؤه بجوار الغمام ميهأة للانطلاق، أتظل واقفًا هكذا تغوص قدماك على مهل فى نعومة الرمل، وعيناك تتطلعان إلى نتف الغمام السابحة فى بحر الفضاء، تخلع رجليك وتدور كمخبول، تود لو تحلق أو تجرى أو تموت أو تطير صوب الشروق، تتأمل صفحة الرمال البكر وهى تخبئ الموت تحت الحليبات اللامعة، فتخشى أن تحرك قدميك، وتهجم عليك ذكرى الأيام البعيدة، والكلب طعيم حين استدار عليك كقبة وفتح فمه باتساع الكون وأوشك أن يلتهمك، كل الأشياء كنت تتخيلها وأنت جالس هناك تحت النخيل.. حتى غير المتوقعة والتى يضحك منها العيال، حصان خيالك حين ينطلق يكبو فوق البحار والشواطئ والغيطان والنساء، حتى الجابرى، كم بركت فوقه ومرغته فى التراب وغرست إصبعك فى رقبته وسط التفاف الناس والتصفيق وأنت تعلم أن ذلك خيال وأنه لا يحب أن تحكيه أمام أحد ولكنك تنتشى وتطلق تنهيدة وتتلفت حولك خشية أن تكون تلفظت به أمام الطير العابر، كنت توجه حصان خيالك فى أى اتجاه تريد، أبدًا لم يخطر ببالك أن تكون فى هذه الحال الذى تواجه فيه الموت من مكان خفى، هكذا بطيئًا وحتميًا وآتيًا لا محالة، والجوع يحفر فى بطنك بآلاف المسامير، ما أحسست بهذا الجوع من قبل، الحصاة اليابسة فى فمك تمصها حتى جف الريق وذيل الجسد، الناس يحكون عن عصابات يجردون الهرابة من أموالهم وحياتهم، وأنت

مما تخشى، لا شىء لديك سوى صمتك وإصبعك وبقايا ذكريات ساخنة لصديق يصرخ عبر امتداد الصحراء:

- «على مهلك يا قمرى.. تعبت يا خوى»

لماذا لا تريد العودة؟ نظرات الناس هناك وديون تراكمت؟ وبنات فى انتظار مجيئك؟ ودفاتر الدكاكين امتلأت عن آخرها، ألا تحمد الله أنك نجوت؟

«ياريت كلتنى الديابة وقطعنى اللغم ولا ارجع لبيتى يا مولاى كما خلقتنى»..

هكذا ترددها فى صحراء نفسك وأنت تضرب رأسك وتغرس إصبعك فى حلقك الجاف وتنهنه من حنجرة مسدودة.

لماذا نسيت العهد وتركت الورد الذى كنت تتلوه بعد صلاة الفجر، فيترطب يومك كله، وتذوب جبال الهم ولو لحظات، ما عرف اليأس الطريق إليك حتى وأن تتأمل سقف البوص الذى نخره السوس، وتتذكر خزين البيت الذى نفد وصباحًا سيطلع عليك بألف سؤال من هذه الأفواه حولك عن أبسط الأشياء ولو أرغفة يابسة، كنت تضحك وتترك نفسك لصحان الأحلام فربما بنيت وعليت وأكلت وتطاولت كمسلة تشرخ فى عمق الفضاء ربما نعست متناسيًا أن صباحًا سيطرق الباب بكف الأسئلة ويدشدش الجسد بمطارق المذلة.

على الرمال كانت قدماك تنتقلان فى ثقل إلى جهة غير معلومة، ونهار تتسرب ساعاته، والرجل حطك هنا ومشى، وسألك إن كنت

تريد شيئًا، وأنت استحيت أن تسأله خبزاً وماء ومأوى، لا زالت تلك الخصلة فيك، تستحى من أبسط الأشياء ولو مجرد سلام يلقى عليك ، فتعده جميلاً فى رقبتك، لماذا لم تطلب شيئًا وأنت ترفع رأسك فى مستوى الجمل وعمامة الرجل الذى ركب وفرد صدره وتهيأ للرحيل، والتفت إليك من عليائه وهو يكبو على اصفرار الرمل وقال:

– المدق قدامك امش فيه على طووول

وأنت وقفت على كومة من الرمل وهتفت

– جميلك فى رقبتى يا شيخ العربان.

وظللت تكررها خلفه وهو يكبو فوق الرمال حتى غابت خلف التلال، أنت لا تعرف الطريق ولا نهاية المدق، إنه يتشعب كشجرة صفصاف جافة، لا يفضى إلى شىء، والجوع سيهاجمك بمخالبه، والشمس هنا قاسية كالموت، وتمضى، لا شىء سوى انطباق أطراف السماء على الأرض، وذكريات تتخبط فى رأسك اليمامى وصوت صديق يستنجد بك، وجسد يتطاير نتفًا فوق حقول الألغام ومارد من غبار يعلو حد الغمام ثم يعود بطيئًا يغطى ملامح الأشياء وجنود يهنئون بعضهم ويعودون إلى أبراجهم يتقافزون فى نشوة، كم من الصور تداعت أمامك وأتت تتدحرج من فوق التلال، والرمال الناعمة تزغرد تحت هدير الرياح، وأنت تلملم جسدك الذى تطوحه الرياح وتتشبث بذلك المدق والخط الواهى، وتوازن نفسك فارداً ذراعيك كمن يمشى لأول مرة تخشى السقوط فى بحر الرمال، كم

تمنيت أن تموت بجوار صديقك هنا حيث يتوقف الزمن وتندثر الملامح وتتوه خرائط البلدان وتأتى الرمال ماسحة صفحة الأمس بما فيها من وجوه وأعضاء وعظام وكبشات أكف ميته على رمال ناعمة.

لا شىء إذًا سوى أن تمضى متعلقًا بحبال التسابيح والتراتيل والأوراد، وها أنت تقفز حد الغمام، تنتشى بفرحة غريق تنسم عبق الحياة وتعلق بيد تجذبه إلى الشاطئ، على البعد خيام وبيوت واطئة تبرك كجمال تحت لهيب الشمس، وكائنات ترعى كالقطط، تزداد تضخمًا كلما اقتربت، فتعرف أنها معيز وخراف كساها اصفرار الرمل وجماعات من الناس ينبتون فجأة من بين التلال والمدقات ويدخلون أحد البيوت، خضرة متناثرة، وبقايا أعشاب ورمال يكسوها الملح، وأنت توشك أن تتكور وتدع الريح تحرك جسدك غير القادر على مواصلة المشى، لماذا لم يلتفتوا إليك وأنت تمشى خلفهم فى صمت، تتبع موضع أقدامهم وتلاحظ عن قرب تلك البنادق التى علقوها فى أكتافهم ووجهوا فوهاتها إلى أسفل، يتبادلون حديثًا بلهجة ممطوطة لم تفهم منها شيئًا سوى آخر الكلمات عن البندقية التى سُرقت، وأنهم ما رأوا السارق، فقط وجدوا شالاً مرميًا وحذاء منسيًا، تتبعوا الأثر حتى اختفت الأقدام فى أحد البيوت، لا أحد فى هذا البيت يلبس هذا النوع من الأحذية، وكسرهم عاجز عن الحركة وجالس يفتل حبال الليف، والولد الوحيد ذهب إلى ليبيا منذ أشهر ولم يعد إلى الآن.

– وليش يسرق بونجعاوى بندقة، أيش يسوى بيها ها العاجز.

القاعة الوسيعة التى احتوت الأجساد.. سرعان ما عمرت بالفتة والمسلوق وخبز الشمس والوفود القادمة، صراحة أنت لم تصدق نفسك، وأكلت بجوع السنين واهتداء الحائر، كنت تأكل وترمق الوجوه المنشغلة عنك بالحديث الجانبى وتقطيع اللحم، وتظن نفسك فى حلم، فتقرص جسدك فى مواضع تفجر الألم، وتنقض على قطع اللحم تعض وتبلع مؤكداً أنك فى صحو وتلك قاعة وشلت ومساند وأفواه تلقم وفحيح أنفاس يتعالى فى قاعة بوسع الكون وناس وأكل جاهز.

كانت فناجين القهوة تدور ومعها الشيشة وجلف الحشيش مرصوصة فى الوسط قطعا مستطيلة بحجم الكف، والأيدى تجز وترص فوق الحجارة المتوهجة، فيعوم المكان فى سحابة الدخان، توشك أن تضحك حين تتذكر سيد أبو عمر، وأنت لم تدخن، وزحزحت قدميك قليلاً على مفرش الصوف، واستسلمت تماماً لذلك النمل الخفى الذى يسرى تحت جلدك، وانتظرت أن يسألك أحد أو يحدثك ولكنهم ما سألوك، وحين دخل عليهم ذلك الشيخ الكبير يطوح عباءته على كتفيه ويجلس فى صدر المجلس.. قاموا جميعا وقبلوا يده، وقبلتها، الهمهمات استحالت حديثا يتجاذب الجميع أطرافه وسط ذهولك وصمتك وتجوال عينيك فى الإشارات حولك، عرفت أنهم جاءوا على ميعاد سبق وجلسة مرتبة، الأصوات ترتفع، ورجال يتنطعون على مفارش الصوف ويقسمون أن

«أبونجعاوى» هو الذى سرق البندقية، ترتفع الأسلحة فى الجهة الأخرى وتعمر وتصوب ومعها عشرات الأيمان أن «أبونجعاوى» ما سرقها، والكبير ساكت وملفوف بالحكمة، عيناه تتفحصان الوجوه فى عمق ولكنه لا يتحدث، وجميع من فى المجلس بح صوتهم إلا أنت، كنت تخشى أن تتوقف نظراته عندك لتواجهك الأسئلة والمحيرة وتتجه إليها فوهات البنادق، النار التى أوقودوها تأججت وسرح لهيبها مخترقًا الجلود، وواجهتها العيون فى وجل والتصقت الأجساد ببعضها، وتطوحت الأيدى تدارى العمائم والوجوه، مستجيرة من وهج يرتفع وصهد يتنامى.

ونطق الكبير، ولأول مرة، كان صوته حكيمًا وعاقلاً وهامسًا.

– ليش كل هذا الهرج، ما عندنا غير البشعة.

الهدير استحال صمتًا، وأنت غارق فى دهشتك، تراقب الشيخ وهو يفتح مخلاته على مهل، ويخرج منها تلك القطعة المعدنية ذات اليد، سوداء بحجم الكف ويضعها فى النار.

كان الصمت يسرح فوق العمائم والصدارى والأفواه التى تتناوب القسم، وأنت صراحة دخلك الخوف والرهبة من ذلك الصمت والترقب.

كان الشيخ قد بدأ يحكى عن حداثة السرقة والتى لم تحدث من قبل بين القبائل وبعضها، كان الدليل قد جلس بين يدى الشيخ وراح يحكى كيف تعقب الأثر وخطوات النمل يحددها بطرف عصاه، من الصبح حتى الظهيرة يتلوى مع التلال والمدقات والأحذية المتشابهة.

وآثار طمستها الريح، وأخرى لا زالت حديثة عهد بهذا الصباح، كان الحذاء يختفى ويظهر فى أماكن أخرى، وهو يمضى متعقبًا نمنمات الحذاء ودائرة النعل وحجم انغراسها فى الرمل وثقل صاحبها وخفته، سرعته أحيانًا وبطئه، وقوفه ودورانه، حتى وجد الأثر يدخل تلك الدار فى النجع المجاور.

– دار بونجعاوى؟

– أيوه يا شيخ.

ارتفعت البنادق مرة أخرى وزامت الحلوق.

سكت المجلس بإشارة من يد الشيخ وهو يسأل الدليل:

– من كام حول ما اقتفيت الأثر؟

– من عشرين حول ما حدا دعانى ولا حصل شىء.

– ما تعرف أن المداسات كل يوم تتغير، وأن ليبيا من يوم ما انفتحت والجزم الروسى مرمية هناك ع الكوم.

وألقى الدليل رأسه بين ركبتيه وهو يتسمع كلام الشيخ عن الشباب الذين ما عادوا فى حاجة إلى سرقة هذه الأشياء، وأن التهليبة الواحدة تكفى شهوراً، وأن الهرابة يسرعون قدر اتساع الخطى وجرى الطريد أمام الجنود وانفلات الألغام والطلقات تاركين أشلاءهم وأشياءهم فى متناول الأيدى، ثم يهمس الدليل:

– باين عينيك دغششت يا بوغريب.

– والله يا شيخ باين على كبرت وما حدا من العيال فاضى لهذا، كلهم هناك ع الجمرك يلقطوا رزقهم.

الشيخ الذى يحرك النار ويؤكد تأججها تحت البشعة التى استحالت جمرة.

قال بصوت هامس:

– وين اللى قال سرقها؟

قام جماعة من الموجودين تتقد عيونهم غيظًا وشرراً، وراحوا يجلسون أمامه واحداً واحداً ويقسمون وراءه بصوت مرتفع:

– قول يمين الله على عينى وعيالى بونجعاوى هو اللى

سرقها وأنت لابد كخفاش تتدارى فى عمائم الجالسين وترسل عينيك صوب نار تتقد والوفد الذى دخلت فى ذيلهم أقسموا جميعا:

– ما سرقها.

وأنت حركت إصبعك وقلت: «ما سرقها».

لماذا قلت ذلك، وهل تعرف الحكاية أصلاً، أغراك حديث الوفد الذين التصقت بهم فرحت تردد خلفهم نفس العبارة إيه يا قمرى.. لماذا أصبحت هكذا تنطق بلا وعى وتتبع من يجرك إلى الهلاك. لم تفعل ذلك وأنت طفل تتطاول فوق كومة الرمل وتتحدى عجل الطلوقة ومن جاءوا يطلبون قططًا محنطة.

الأفواه تتناوب الإجابة والرفض، وعينا الشيخ تتابعهم حتى انتهوا وغاص المجلس فى الصمت مرة أخرى، وانتظروا كلمات الشيخ التى ستحدد من يكون صادقًا، النار متوهجة، وعصا الشيخ تحركها فتزداد البشعة احمراراً.

همس الشيخ:

– اللى قال ما سرقها يلحس البشعة.

كنت ترى الواحد يجلس بين يديه ويفتح فمه، ويمرر البشعة على لسانه المتدلى كمطرحة، فيتعالى البخار والصياح والشهقات، وتسمع أزيز النار يطفأ فى تجويف الفم، بين رهبة والتصاق أجساد وعرق ينزف على الجباه، ورجل يرتمى جالسًا يلهث ملفوفًا بالرعب، يفتح فمه ككهف وعيناه تتسعان فى فضاء الدهشة، وظهور تستجير بجدران تنكمش وخلاء يضيق، واصفرار يكسو الوجوه، واحدًا بعد الآخر وهم صامتون وجمال الخوف تسحق الأجساد، لقد بدأ الدور يأتى عليك، أفت أيها المنكمش كضفدعة بين الأجساد، لقد بدأوا يتقشرون عنك فبنت كطوية مركونة على الجدار، عيناك تتحركان وإصبعك يهتز، لماذا لم تتحرك، أتراك قد تبولت على نفسك أم ماتت فيك الكلمات، لماذا ارتخى إصبعك هكذا وأنت تقاوم مارداً وهميًا، وتدفع عن وجهك نارا تلظى وعشرات الأشباح وكلبًا يطاردك ولغمًا ينطق كمارد نارى ويبعثر أشلاء صديقك على حصير الرمال، وعجلاً بحجم الغل يغز قرنه فى ظهرك ويدفعك للتحرك، قف، انطق، دافع عن نفسك، ما أقسى تلك النار حين تأكل فمك وسط ضحكات الموجودين، تتركك بلا ملامح، إن الأكلة التى ما هضمتها توشك أن تتقيأها على مفرش الصوف، يتردد القيء فى حلقك مرًا والعيون تتابعك وأنت تكسح ككلب البحر، صراحة أنت صرخت وبكيت وتمرغت على مفرش

الصوف وداريت عريك بيدين ترتجفان وقبلت يد الشيخ ورجليه فهلل الواقفون ووجهوا إليك فوهات بندقياتهم وصاحوا:

– قلنا سرقها ما صدقتم كلامنا.

وصوتك المبحوح مدفون تحت تلال الرهبة، لهاث ودمع يتحجر الآن فقط.. عينا الشيخ تتأملك للمرة الأولى، يتفرس فى وجهك ويشير لهم بالجلوس، فيقعدون على مضض.

سألك الشيخ:

– مين انت يا ولدى؟

– أنا القمرى يا شيخ، والله أنا القمرى.. بص..

بطاقة ورقية تآكلت وتبعثرت حروفها، ولملمتها باللصق قدر الاستطاعة، وصورة باهتة انطمست معالمها من العرق.

فعادت البنادق تصوب فوهاتها إليك، والشيخ لا زال يحدق فيك بعينين غائرتين، حكيت له عن كل شيء، ومددت البطاقة إليه، قلبها بين يديه وهمس لك:

– ليش فعلت كده؟

فأعدت الحكاية مرة أخرى، حدثته عن الألغام وأعضاء صديقك التى تناثرت، والرجل الذى لاقاك فى أحضانه ورواك بالماء والدفء وذلك على المدق الطويل.

سألك الشيخ:

– وايش شكله هذا؟

ووصفته له، فراح يتأمل إصبعك الرخو ويذكرك بملامح وجهه

– طويل هو وفيه سكسوكة.

وأنت تجيب بإيماءة مرتعشة

– ولكن أسألك يا وليدى ليش عملت كده، ليش قلت ما سرقها، ليش دخلت نفسك فى حاجة مالك فيها شىء؟

المجلس ضج بالضحك، ونامت الأسلحة، وهدأت ثورة الأجساد الخائفة وانطفأ لهيب النار، وهم يراقبون إصبعك المرتعش أمام الشيخ وأنت تتحدث.

البهجة التى كست المكان كشف عنها وجه الشيخ وهو يضع البشعة الباردة فى مخلاته ويصمت قليلاً فيخيم الهدوء على بسمات تزداد اتساعًا، قال الشيخ:

– يا رجال ما حدا يقبل العار ولا يرضى المذلة، مالنا إلا بعضنا آدى بندقيتى الآلى خدها بدل اللى راحت، فتناولوها وقبلوها وقالوا:

– نحن نزيدها يا شيخ.

وراح يستعرض أمامهم كم الخطر الذى سيحيق بهم لو عادوا بعضهم، وأنهم يجب أن يحافظوا على السبوبة التى يأكلون منها الشهد، وغمز بعينه فتلاقت العيون غامزة ومؤكدة وموافقة، وقالوا:

– ندفع بدل البندقة عشرة آلى وتلاتة خرطوش ويشهد الله أن ابننا ما سرق.

فقام من فى الجهة المقابلة وقالوا:

– ونحن ما نبغى العوض ولا نرضى المظالم العيب عيب الدليل.

وتلاقت الحضان، وخرجوا يضربون كفًا بكف وتتعالى ضحكاتهم وهم يحركون أصابعهم ويقلدونك حتى غابوا وراء التلال.

ولأول مرة ترى ابتسامة الشيخ عن قرب وأسنانه السليمة.

ما زال يتأملك عن قرب وانت تغوص فى تقاطيع وجهك، لماذا داريت عريك وخزيك وتذكرت تلك الساعة البعيدة، كنت تمارس العادة السرية هناك فى الخص المتروك على حافة الجنينة، تتلفت بعينى قط وتنطلق مجنونًا داخل اللحظة، هنا حيث يتوقف الزمن وتبدو الأشياء باهتة وبعيدة، ودخل عليك أبوك، كان يبحث عن أشيائه التائهة ورآك وأنت فى ذروة نشوتك، تميل متقوسًا وتنكفئ على حافة الكون، هناك فى اعلى هذه النقطة حيث تهيم الروح ويقشعر الجسد وينتفض، وأنت رأيته أمامك مباشرة يرمقك بشق العين ويستدير خارجًا، ناصبًا رأسه وباصقًا فى وجه الخلاء ومخفيًا بسمة سرحت إلى شفتيه وهو يلملم شاله من لفح الريح، لماذا تعاودك هذه اللحظة الآن، تتحسس بانسحاق هذا الجسد وهروب الكلام وحيرة اللحظة.

لقد ضحك الشيخ ملء قلبه وأردفك وراءه حتى مطروح، ثم تركك فى زحام الناس.

لا زالت الدروب والبيوت والغيطان تلفظ الناس، سرعة ولهاث وأقدام تتجمع حولك، أليس هذا بين الجناين، كانت أفرع الجوافة

فوق السور تتلاحم على الجانبين وتظلل على تراب الشارع اللدن، وأنت صغير تتقافز كضفدعة بين القنوات والحشائش متتبعًا مجرى الماء الملاصق لسور الحديقة، هنا لايعرف العيال هذا المكان حيث تتساقط الجوافة ملء اليد، حمراء بدم العذارى، وأنت تلملم ملء حجرك المبتل، وتأكل مندسًا بين الحلفاء والعشب والظل القاتم، تقضم وتتلفت، كان بجوارك تمامًا يستحم بشمس الضحى ويعرض قروشه اللامعة للشمس، ويطوح رأسه المفلطح فوق قبة لحم تتماوج، رأيته عن قرب، عينان بارزتان ولسان مشقوق وجسد مكوم كعجل نزل لتوه من حيا الجاموسة، حنش الجنينة دائمًا ما كنت تقوم مفزوعًا من أعماق النوم حين كان يطاردك بين الدروب والأشجار المتشابكة، وأنت تجرى، قدماك لا تطاوعك، فمه المفتوح يقابلك أينما توجهت، يلتف عليك خانقًا كل حركة فيك، وأنت تعافر وتتلوى وتصرخ بصوت مبحوح حين يوشك الفم المفتوح أن ينطبق عليك، عندها يتعالى صراخك وتخبطك فى جنبات البيت وأجساد النائين وحضن أبيك والبسملة والاستعاذة وصب الماء فى الفم المرتعش، وصوت أمك الملهوف:

– اسم الله عليك يا ضناى.

كانوا يحكون لك عنه، هو اللابد فى مكان ما بين تلك الأعشاب الكثيفة، يخرج يتشمس ساعة الضحى، يتلوى ويمضى رويدا فتموج الحشائش وتفر الطيور وتتعالى صرخات الفئران المختبئة، قالوا ملك، وقالوا حارس، وقالوا ما أذى أحدًا، وقالوا ربما يكون غاضبًا ولا يجد

ما يأكل فيبتلع من يقابله، أنت الآن جالس بجواره، والشمس تزداد سطوعًا، والمكان هنا غارق فى الهسيس والوحشة وانقطاع الأرجل والنفس والكلام، لا زوال لأحد يمشى أو يبص، العيال هناك يبعدون بين الدروب، تحرث أقدامهم التراب ويعلو صياحهم وراء كلب صغير، آهلو مروا من هنا، أبوك خرج منذ الصباح بسحارة الفاكهة على حماركم، يشق غبشة الفجر، نخسك بعصاه، وقال لك تعال معى، فتناومت، لماذا لم تذهب معه، لماذا لم تلعب مع العيال، حديقتكم ملأى بالجوافة، لماذا تأتى إلى هنا، تقول إن جوافة هذه الحديقة قلبها أحمر وطعمها رائع، كل يوم تتسحب من وراء العيال وتأتى مندسًا بين الحشائش حتى هذا المكان تعبئ حجرك وتمضى، لماذا لم يهتد العيال إلى هذا المكان، هل كانوا يعرفون هذا، مالك لا تنطق، انهض واجر، اصرخ، جسدك ثقيل ولاصق بالأرض، والبول يتدفق ساخنًا على جلبابك، والذى تكوم انفرد عن آخره وطوح رأسه فى الفضاء ومشى أمامك مباشرة، رأيت عن قرب نمنمات القروش وبروز العينين والظهر المستدير بطول النخلة، مشى أمامك هكذا دون التفات، وأنت ساكن كحجر تبلع ريقا جف وتكتم أنفاسك ودقات قلبك المتلاحقة، توجه حدقتى العينين صوب الذيل الذى ابتعد مخلفًا مجرى بين الحشائش، فانطلقت كالفصاد تجرى وتقع وتتلفت خلفك، وجلبابك المبتل يفضحك، حتى ارتميت هناك على عتبة بيتكم تنظم أنفاسك ودقات قلبك وتدارى البلل وتنسحب إلى ظلام البيت فى صمت، تتذكر الآن، وقد اختفت

الأشجار والظلال والحلفاء، فى هذا المكان الممتد إلى رحم البلدة، كان السامر يتراص على الجانبين والغناء المتبادل يعلو «يا واد يا صغير ايش جابك هنا - أنا بين الجناين رمانى الهوى».

وتتساءل أين ذهب حنش الجنينة؟ لعله كما يقولون «طق ومات» ووجدوه ممداً على الجسر، ساعات لا يستطيع أحد الاقتراب منه خوفًا من أن يفتح فمه فى لحظة، ولكن الوقت يمر، والناس ينظرون من بعيد متهيئين للاستدارة والهروب، والحركة توقفت تمامًا واندفع الطوب من العيال مرتطمًا بالجسد والرأس المستسلم بلا حركة، مازلت تنظر حولك أيها العائد من بحار الرمال، محملاً بتلال الخوف والذكريات وجسد مهشم تحت آلاف المطارق، لقد تبعوك يا لغريب وأحاطوك بالهمهمات، وتفحصوا عن قرب وجهك ورائحة الرمل والخوف وزيغ العينين وارتعاشتك المحمومة.

وأنت تسأل نفسك: كيف استطعت أن تسوق جسدك إلى هنا وكيف أن الراكبين كانوا يدارونك عن عينى الكمسارى ويحشرونك تحت كراسى القطار، فتتشمم رائحة البول والفساء وعطن الأحذية المخلوعة، تسمع صوت الكمسارى مميزًا وقويًا وخارقًا للأجساد، فتتقوقع على نفسك كجرة، تدارى أصبعك وتكتم أنفاسك وأنت تتذكر الكمسارى أبوعيون خضرا وهو يكسح الأجساد فى أوتوبيس (أحلاهم).

لا زالت قدماك تنتقلان بثقل عبر الشارع الممتد والمبانى الجديدة تتذكر ساعة نزولك من القطار تائهًا، تتعلق بمؤخرة السيارات

والحناطير، وصوت ينطلق من مكان ما:

- كرباج ورا يا اسطى.

وبيدين عائمتين فى الهواء تحاذر كرباجًا ينزل على ظهرك وأذنيك قاسيًا وغائصًا فى اللحم، تتدحرج متكوراً وتدارى عريك وسط الضحكات وكرباج يطرقع ويختفى فى فضاءات الشوارع، وأنت تشير عكس الماء المندفع من ترعة الإبراهيمية، يدفعك الريح والحنين وعبق قديم صوب الجنوب، ترى سيارات القصب وأجولة السكر والقطن ومياه النهر تتجه نحو الشمال، لقد تعلمت كيف تكور نفسك لحظة هجوم الجوع والجنود وقلة الحيلة ووجع القدمين المسافرين عبر الأماكن والأزمنة، كنت تتقوقع على همك وخجلك، تساقط وأنت تتكئ على حواف الجدران كطلاء قديم وصورة مرسومة بالطبشور، تقف وتعافر وتمضى متسنداً على الظلال والأشجار والضوء والنهارات الجديدة، تدارى إصبعك الرخو وتعض على عافية تتفلت وأقدام كلت لا تقصقص الطرق الطوال، أياد تنحنى وتضع فى حجرك.

وأنت منكمش كقنفذ، تلقم بحيرة الملهوف وانهمار الدمع وحسرة تفتت الحشا، وأنت ترى المدن تضيق بك، تحاصرك الأيدى الشقية حتى طاقيتك خطفوها وعروا شعرك المنكوش أمام الريح والعيون، مزقوا جلبابك وبحثوا بين أحشائك عن نقود تخبئها، تركلك أحذية الجنود فتهرول مدفوعًا بسيل الطوب والكرابيج والصياح وعصى الجنود.. حتى حدود المدينة، وأنت تلوذ بالبكاء

والنهنهة والجرى المتواصل.

كم من اللهجات والكلمات وشارات الأصابع حاصرتك، منذ خروجك من مطروح حتى مجيئك هنا، تتلفت حولك الآن والأسئلة تنبدر من حولك كالرصاصات.

قالوا غريب معبأ بالأسرار، وأنت انكفأت على ظلك، تحاذر عيون الخفراء التى تتلصص من وراء الجدران، تخشى أن تساق منكسراً أمام دفعات كعوب بنادقهم فى ظهرك المنحنى ليضعوك أمام الجابرى، ذلك ما كنت تخشاه، أن يراك منهزمًا ولائذاً بالجدار ككلب يحاصره طوب الصبية تعرف أنه يتمنى ذلك منذ الأزمنة البعيدة والمنسية، والتى انشغل عنها الجميع فى هموم حياتهم، يود لو يدحرجك أمام الناس كجرة سدت فوهتها وامتلأت بالأسرار، حين يتذكر حكاية جدك الذى رفض العمل عند أبيه، وإصبعك الذى تفرده أمام الوجوه، وتجمع الناس عندك فى البيت حتى الفجر يتسامرون، حيث يدور الحديث الذى يعرف أن له نصيبًا فيه.

وأنت العارف بمعادن الناس وأنسابهم وتحركاتهم فى عتمة الليل، والأسرار التى ينغلق عليها عشرات الأبواب، ماذا حكى جدك عما مضى، أبوك كان ملفوفًا بأسراره والصمت وخرجين مملوئين بفيض الثمار والنعناع، يسرح بهما مع النجمة حيث لا يراه أحد، كان مستغنيًا والناس يقولون له يا عم ويمنحونه أسرارهم، لماذا أبوك بالذات كانوا يفرشون أمامه مناديل أسرارهم والهموم، وما هذه الأسرار التى لم تستطع التقاطها آذان الخفراء أو عيونهم، هو

الآن جالس على كرسيه فاتحًا فمه ويديه وجيبه الخاوى فى انتظار العائدين والشاكين والضعفاء والمهملين، وأنت حينما رأيت ملامح البيوت القديمة استعدت الوعى، ورحت تجرى وتزوغ وتراوغ الأيدى التى أحاطتك عبر الشوارع والدروب، تختبئ فى أماكن مازلت تعرفها حين كان يطير وراءك العيال فى الاستغماية، ثم تنظر بعينى قط، العيون تتلفت والأيدى تضرب بعضها فى حسرة على انفلات الصيد، وأنت تخلص جلبابك الممزق وشعرك المنكوش من قبضات الأيدى، تقفز كنسناس، تصير ذبابة وقطًا وطائراً، وتغز إصبعك الرخو فى لحظة العيون، هنا تعاودك نتف الذاكرة حين تغوص فى دروب البلدة القديمة، حيث كنت تختبئ هنا بين الجروف وزروع القصب، تبص بعينين متنمرتين إلى عيون تتلفت وبنادق تصوب فوهاتها العمياء صوب الخلاء، وأنت الخانس كنمس وراء النخيل..

تهيأ لتتسلق واحدة، وتلملم مزق جلبابك، وتدارى عضوك بين فخذيك وتتلفت من عل، وحبست ضحكة توشك أن تنطلق، إنهم تحت قدميك مباشرة يحملقون فى التراب الناعم الذى طبعت عليه أقدامك المسرعة.

ومن شجرة إلى شجرة وسطح إلى سطح تجول نظراتك القلقة، متأملة ووجلة، الأشياء القديمة راقدة كعجائز منسية، صوامع الغلال والأسبات وأكوام البوص والقرب اليابسة وأطباق الدش والملابس المهترئة عالقة بها رائحة الأحبة.

اللغط والهرولة والصياح الذى عم الدروب تجمع هنا، وأنت على

عتبة بيتك تتأمل الباب الموارب، تحاول قراءة الحروف المبعثرة والذكريات التى صفرتها بمسمار، باهتة يكسوها التراب، وأنت تمسح وتقرأ وتتذكر وتروح فى إغماءة طويلة، وعيناك منبلجتان على الباب الموارب..

***

نعم كان مواربًا، وكانوا فى انتظارك، زوجتك التى تتعهد نفسها بالنظافة اليومية، وبناتك اللاتى مازلن يضربن بمناقيرهن فى الأرض ويستخرجن لك الدود طعمًا لسنارتك، بحر يوسف، وأشياؤك المعلقة على الجدران تناديك بآلاف اللغات، مسجد السعف وشجرة الزيتون التى تعالت فروعها وفرشت على أسطح البيوت، الزروع الممتدة حد الشوف فى حاجة إلى فأسك التى تغوص فيها إلى عمق الرحم، ومريدوك الذين استشعروا مدى رحيلك فراحوا يرددون مواويلك والحكايات ويتتبعون مواضع أقدامك التى كانت تسعى هنا بين المصارف والزروع والشطوط وبحر يوسف والمساطب وأغنيات الحصاد.

تأمل عيونهم.. تلك المحيطة بنا وأجسادهم التى تنحنى عليك كقبة، انظر جيدًا فى هذه الوجوه، عبق الماضى وزمن الطيبين وأيام الصبا، من بين أرجلهم تبص رؤوس أطفال كالزغاليل، ربما لم يروك، ها هم يتأملونك عن قرب ويغوصون فى تقاطيع وجهك وشاربك الكث وعينيك اللتين مازالتا تحتفظان بلمعة زجاجية، كانوا قد سمعوا عنك وأصبحوا يمثلون حكاياتك فوق المصاطب

ويتصايحون:

- أنا القمرى

- لا أنا القمرى

وحين يتعبون من الجدال يرفعون أصابعهم ويصيحون:

- كلنا القمرى.

ها هى الوجوه المنحنية فوقك تستجديك بشتى المشاعر وفيض الدمع، لقد جاءوا من كل صوب على أمل أن يعودوا بك الآن إلى البيت وأنت تشدو أمامهم، بالضبط كما كنت تفعل فى زفة المولد والعرائس والحجيج، هل تسمع أصواتهم وإيقاع دبكتهم وإنشادهم، إنه كلامك الذى علمته لهم مازالوا يرددونه بأفراحه وآلامه، ما زالوا يضحكون منذ أن جن محمود الجابرى وأخذ أولاده حكمًا بالحجر على بقايا أرضه التى باع معظمها، وسكن كبومة وحيدة فى بيته المهجور، يبص من وراء النافذة بعينين زائغتين، ويخشى العيون، ويحاذر همسات المارة ويصرخ فى عمق الليل كفأر مزعور، فيرتد صدى صوته فى خواء بيت تساقط طلاؤه.

وابن عمك.. ظلوا أيامًا لا يعرفون عنه خبرًا وراحوا يبحثون عنه ويطلبون رقم محموله، يتلفتون عليه بين الآبار والسواقى المهجورة إلى أن سمعوا رنة محموله آتية من عمق بئر محفور، هناك وجدوه ميتًا تحاصره عشرات القطط وتخمش أظفارها فى وجهه الممسوح.

الناس حولك متعبون، والشمس توشك أن تسقط فى حجر المغيب، وعيناك تتلفتان بحيرة الملهوف تسترجع الذكريات

فيرتعش لسانك ويحمر وجهك ويحتقن الدمع فى عينيك....
ابك، اصرخ، قل شيئًا، دع الدمع ينهمر من عينيك، ارتم فى حضن الواقفين ونهنه كطفل عاد إلى أمه، كان يبص فى وفيهم ويعصر الذاكرة، كان كمن يعافر الخروج من عمق بحر حين علا لهاثه وتصاعدت أنفاسه وظننا أنه سيصرخ أو يبكى، ولكنه أطلق ضحكة مجلجلة وقام كمن ينفض عن نفسه تلال الهموم وراح يعانقنا واحدًا واحدًا.

حين احتوانا دفء الدروب ونحن عائدون نمشى وراءه، التفت وجد البلدة كلها خلفه، فأطلق أجنحة صوته وراح يشدو بالمواويل ويخترق بإصبعه المرفوع تلافيف الدروب، ونحن وراءه بموكبنا الذى يتزايد ويقترب من بابه الموارب وحصيره الممتد بحجم الكون.

المحتوى

* **طرح النهر** 7
- «قنابل البرتقال» 9
- «حارس الملك» 11
- «تداعيات الضحى» 53
* **حديث الصوامع الفارغة** 69
- «ثورة القطط المحنطة» 71
- «عروس من قطن اللحاف» 81
- «كائنات الجدار» 101
- «صحراء الكلب طعيم» 129
* **الهروب شرقًا** 155
- «حفريات باهته» 179

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
إبداعات

266- شجره محفوره ببنسه شعر ..... أسماء عيد

267- عنيا بتشوف كويس ..... جمال فتحى

268- يبنى نُصبُه التذكارىّ ..... صالح أحمد

269- البر الآخر ..... محمد أبو الدهب

270- شارع ضيّق جوّه الروح ..... أشرف عبد الحى

271- الولد الذى اختفى ..... بسمة عبد العزيز

272- خربشه علي شجرة نبق ..... مدحت إمام

273- قِرَاءةٌ فِى كِتابِ النّأْىِ ..... أشرف محمد قاسم

274- شوارع نص مفتوحه ..... سعيد عبدالمقصود

275- حلم مش لابس هدوم ..... حسن زكى

276- عندما يضحك النهر ..... عرفة محمد حسن

277- الدرامى مؤلف الحكايات ... أحمد عادل